لاتنه عن خلق وتأتى مثله * عار عليك اذا فعلت عظيم

حكى أبو فروة أن طارقا صاحب شرطة خالد بن عبد الله القسرى مر بابن شبرمة وطارق فى موكبه فقال ابن شبرمة

أراها وان كانت تحب كأنها . سحابة صيف عن قريب تقشع

اللهم لى دينى ولهم دنياهم فاستعمل ابن شبرمة بعد ذلك على القضاء فقال له ابنه أبو بكر أتذكر قولك يوم كذا أن مر بك طارق فى موكبه فقال يابنى انهم يجدون مثل أبيك ولا يجد أبوك مثلهم ان أبالك أكل من حلوائهم فخبط فى أهوائهم أما ترى هذا الدين الفاضل كيف عوجل بالتقريع وقوبل بالتوبيخ من أخص ذويه ولعله من أبر بنيه فكيف بنا ونحن أطلق منه عنانا وأقلق جنانا اذا رمقتنا أعين المتتبعين وتناولتنا ألسن المتعنتين هل نجد غير توفيق الله تعالى ملاذا وسوى عصمته معاذا

(باب أدب العلم)

اعلم أن العلم أشرف ما رغب فيه الراغب وأفضل ما طلب وجد فيه الطالب وأنفع ما كسبه واقتناه الكاسب لان شرفه ينمّ على صاحبه وفضله ينمى عند طالبه . قال الله تعالى «قل هل يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون» فنع سبحانه المساواة بين العالم والجاهل لما قد خص به العالم من فضيلة العلم وقال تعالى «وما يعقلها الا العالمون» فنفى أن يكون غير العالم يعقل عنه أمرا أو يفهم منه زجرا . وروى عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال أوحى الله الى ابراهيم عليه السلام انى عليم أحب كل عليم . وروى أبو أمامة قال سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن رجلين أحدهما عالم والآخر

عابد فقال صلى الله عليه وسلم فضل العالم على العابد كفضلى على أدناكم رجلا . وقال على بن أبى طالب رضى الله عنه الناس أبناء ما يحسنون . وقال مصعب بن الزبير لابنه تعلم العلم فان يكن لك مال كان لك جمالا وان لم يكن لك مال كان لك مالا . وقال عبد الملك بن مروان لبنيه يابنى تعلموا العلم فان كنتم سادة فقتم وان كنتم وسطا سدتم وان كنتم سوقة عشتم وقال بعض الحكماء العلم شرف لا قديم له والأدب مال لا خوف عليه . وقال بعض الأدباء العلم أفضل خلف والعمل به أكمل شرف . وقال بعض البلغاء تعلم العلم فانه يقومك ويسددك صغيرا ويقدمك ويسودك كبيرا ويصلح زيغك وفاسدك ويرغم عدوك وحاسدك ويقوم عوجك وميلك ويصحح همتك وأملك . وقال على رضى الله تعالى عنه قيمة كل امرئ ما يحسن فأخذه الخليل فنظمه شعرا فقال

لا يكون العلى مثل الدنى * لا ولا ذو الذكاء مثل الغبى

قيمة المرء قدر ما يحسن المر * ء قضاء من الامام على

وليس يجهل فضل العلم الا أهل الجهل لان فضل العلم انما يعرف بالعلم وهذا أبلغ فى فضله لان فضله لا يعلم الا به فلما عدم الجهال العلم الذى به يتوصلون الى فضل العلم جهلوا فضله واسترذلوا أهله وتوهموا أن ما تميل اليه نفوسهم من الاموال المقتناه والطرف المشتهاه أولى أن يكون اقبالهم عليها وأحرى أن يكون اشتغالهم بها . وقد قال ابن المعتز فى منثوراته الحكم العالم يعرف الجاهل لأنه كان جاهلا والجاهل لا يعرف العالم لانه لم يكن عالما وهذا صحيح ولأجله انصرفوا عن العلم وأهله انصراف الزاهدين وانحرفوا عنه وعنهم انحراف المعاندين لان من جهل شيأ عاداه . وأنشدنى ابن لنكك لابى بكر بن دريد

جهلت فعاديت العلوم وأهلها * كذا الرئ يعادى العلم من هو جاهله
ومن كان يهوى أن يرى متصدرا * ويكره لا أدرى أصيبت مقاتله

وقيل لبزرجمهر العلم أفضل أم المال فقال بل العلم قيل فما بالنا نرى العلماء على أبواب الاغنياء ولا نكاد نرى الاغنياء على أبواب العلماء فقال ذلك لمعرفة العلماء بمنفعة المال وجهل الاغنياء بفضل العلم . وقيل لبعض الحكماء لم لا يجتمع العلم والمال فقال لعز الكمال . وأنشدت لبعض أهل هذا العصر

وفى الجهل قبل الموت موت لأهله * فأجسامهم قبل القبور قبور
وانّ امرأ لم يحى بالعلم ميت * فليس له حتى النشور نشور

ووقف بعض المتعلمين بباب عالم ثم نادى تصدقوا علينا بما لا يتعب ضرسا ولا يسقم نفسا فاخرج له طعام ونفقة فقال فاقتى الى كلامكم أشد من حاجتى الى طعامكم انى طالب هدى لا سائل ندى فأذن له العالم وأفاده عن كل ما سأل عنه فخرج جذلا فرحا وهو يقول علم أوضح لبسا خير من مال أغنى نفسا ۞ واعلم أن كل العلوم شريفة ولكل علم منها فضيلة والاحاطة بجميعها محال . قيل لبعض الحكماء من يعرف كل العلوم فقال كل الناس . وروى عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال من ظن أن للعلم غاية فقد بخسه حقه ووضعه فى غير منزلته التى وصفه الله بها حيث يقول « وما أوتيتم من العلم الا قليلا » . وقال بعض العلماء لو كنا نطلب العلم لنبلغ غايته لكنا قد بدأنا العلم بالنقيصة ولكنا نطلبه لننقص فى كل يوم من الجهل ونزداد فى كل يوم من العلم . وقال بعض العلماء المتعمق فى العلم كالسابح فى البحر ليس يرى أرضا ولا يعرف طولا ولا عرضا . وقيل لحماد الراوية

أما تشبع من هذه العلوم فقال استفرغنا فيها المجهود فلم نبلغ منها المجهود فنحن كما قال الشاعر * اذا قطعنا علما بدا علم * وأنشد الرشيد عن المهدي بيتين وقال أظنهما له

يا نفس خوضي بحار العلم أو غوصي * فالناس ما بين معموم ومخصوص
لا شيء في هذه الدنيا نحيط به * الا إحاطة منقوص بمنقوص

واذا لم يكن الى معرفة جميع العلوم سبيل وجب صرف الاهتمام الى معرفة أهمها والعناية بأولاها وأفضلها وأولى العلوم وأفضلها علم الدين لان الناس بمعرفته يرشدون وبجهله يضلون اذ لا يصح أداء عبادة جهل فاعلها صفات أدائها ولم يعلم شروط إجزائها . ولذلك قال رسول الله صلى الله عليه وسلم فضل العلم خير من فضل العبادة وانما كان كذلك لان العلم يبعث على فعل العبادة والعبادة مع خلو فاعلها من العلم بها قد لا تكون عبادة فلزم علم الدين كل مكلف . ولذلك قال النبي صلى الله عليه وسلم « طلب العلم فريضة على كل مسلم » وفيه تأويلان . أحدهما علم ما لا يسع جهله من العبادات . والثاني جملة العلم اذا لم يقم بطلبه من فيه كفاية واذا كان علم الدين قد أوجب الله تعالى فرض بعضه على الاعيان وفرض جميعه على الكفاية كان أولى مما لم يجب فرضه على الاعيان ولا على الكفاية . قال الله تعالى « فلولا نفر من كل فرقة منهم طائفة ليتفقهوا في الدين ولينذروا قومهم اذا رجعوا اليهم لعلهم يحذرون » . وروى عبد الله بن عمر رضي الله عنهما أن رسول الله صلى الله عليه وسلم دخل المسجد فاذا هو بمجلسين أحدهما يذكرون الله تعالى . والآخر يتفقهون فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم كلا المجلسين على خير وأحدهما أحب الي من صاحبه

أما هؤلاء فيذكرون الله تعالى و يسألونه فان شاء أعطاهم وان شاء منعهم وأما المجلس الآخر فيتعلمون الفقه و يعلمون الجاهل وانما بعثت معلما و جلس الى أهل الفقه . وروى مروان بن جناح عن يونس بن ميسرة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال الخير عادة والشر لجاجة ومن يرد الله به خيرا يفقهه فى الدين . وروى عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال خيار أمتى علماؤها وخيار علمائها فقهاؤها . وروى معاذ بن رفاعة عن ابراهيم ابن عبد الرحمن العدوى قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم يحمل هذا العلم من كل خلف عدوله ينفون عنه تحريف الغالين وانتحال المبطلين وتأويل الجاهلين . وروى عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال على بخلفائى قالوا ومن خلفاؤك قال الذين يحيون سنتى يعلمونها عباد الله . وروى حميد عن أنس أن النبى صلى الله عليه وسلم قال الفقه فى الدين فرض على كل مسلم ألا فتعلموا وعلموا وتفقهوا ولا تموتوا جهالا . وروى سليمان ابن يسار عن أبى هريرة أن النبى صلى الله عليه وسلم قال ما عبد الله بشئ أفضل من فقه فى الدين ولفقيه واحد أشد على الشيطان من ألف عابد ولكل شئ عماد وعماد الدين الفقه وربما مال بعض المتهاونين بالدين الى العلوم العقلية ورأى أنها أحق بالفضيلة وأولى بالتقدمة استثقالا لما تضمنه الدين من التكليف واسترذالا لما جاءبه الشرع من التعبد والتوقيف والكلام مع مثل هذا فى أصل لا يتسع له هذا الفصل ولن ترى ذلك فيمن سلمت فطنته وصحت رويته لان العقل يمنع من أن يكون الناس هملا أو سدى يعتمدون على آرائهم المختلفة و ينقادون لأهوائهم المتشعبة لما تؤول اليه أمورهم من الاختلاف والتنازع وتفضى اليه أحوالهم من

التباين والتقاطع فلم يستغنوا عن دين يتآلفون به و يتفقون عليه ثم العقل موجب له أو تابع له ولو تصوّر هذا المختل التصور أن الدين ضرورة في العقل وأن العقل للدين أصل لقصر عن التقصير وأذعن للحق ولكن أهمل نفسه فضل وأضل . وقد يتعلق بالدين علوم قد بين الشافعي رحمه الله فضيلة كل واحد منها فقال من تعلم القرآن عظمت قيمته ومن تعلم الفقه نبل مقداره ومن كتب الحديث قويت حجته ومن تعلم الحساب جزل رأيه ومن تعلم اللغة رق طبعه ومن لم يصن نفسه لم ينفعه علمه ولعمري ان صيانة النفس أصل الفضائل لان من أهمل صيانة نفسه ثقة بما منحه العلم من فضيلته وتوكلا على ما يلزم الناس من صيانته سلبوه فضيلة علمه و وسموه بقبيح تبذله فلم يف ما أعطاه العلم بما سلبه التبذل لأن القبيح أنم من الجميل والرذيلة أشهر من الفضيلة إذ الناس لما في طبائعهم من البغضة والحسد ونزاع المنافسة تنصرف عيونهم عن المحاسن الى المساوى فلا ينصفون محسنا ولا يحابون مسيئا لاسيما من كان بالعلم موسوما واليه منسوبا فان زلته لا تقال وهفوته لا تعذر إما لقبح أثرها واغترار كثير من الناس بها . وقد قيل في منثور الحكم زلة العالم كالسفينة تغرق و يغرق معها خلق كثير . وقيل لعيسى بن مريم عليه السلام من أشد الناس فتنة قال زلة العالم إذا زل هلك بزلته عالم كثير فهذا وجه و إما الان الجهال بذمه أغرى وعلى تنقيصه أجرا ليسلبوه فضيلة التقدم و يمنعوه مباينة التخصيص عناد لما جهلوه ومقتا لما باينوه لان الجاهل يرى العلم تكلفا ولؤما كما أن العالم يرى الجهل تخلفا ودنما وأنشدت عن الربيع للشافعي رضي الله عنه

ومنزلة السفيه من الفقيه * كمنزلة الفقيه من السفيه

فهـذا زاهد فى قرب هـذا * وهذا فيـه أزهـد منه فيه
اذا غلب الشـقاء على سفيه * تنطع فى مخالفـة الفقيه

وقال يحيى بن خالد لابنه عليك بكل نوع من العلم فخذ منه فان المرء عـدو ما جهل وأنا أكره أن تكون عدوّ شئ من العلم وأنشد

تفنن وخذ من كل علـم فانما * يفوق امرؤ فى كل فنّ له علم
فأنت عدوّ للذى أنت جاهل * به ولعلم أنت تتقنـه سـلم

واذا صان ذو العلم نفسه حق صيانتها ولازم فعل ما يلزمها أمن تغيير الموالى وتنقيص المعادى وجمع الى فضيلة العلم جميل الصيانة وعزة النزاهة فصار بالمنزلة التى يستحقها بفضائله . وروى أبو الدرداء أن النبى صـلى الله عليـه وسلم قال العلماء ورثة الانبياء لان الانبياء لم يورّثوا دينارا ولا درهما وانما ورّثوا العلم . وروى أبو هريرة أن النبى صلى الله عليه وسـلم قال للانبياء على العلماء فضـل درجتين وللعلماء على الشـهداء فضـل درجة . وقال بعض البلغاء انّ من الشريعة أن تجل أهل الشريعة ومن الصنيعة أن ترب حسن الصنيعة فينبغى لمن استدل بفطنته على استحسان الفضائل واستقباح الرذائل أن ينفى عن نفسه رذائل الجهل بفضائل العلم وغفلة الاهمال باستيقاظ المعاناة ويرغب فى العلم رغبة متحقق لفضائله واثق بمنافعه ولا يلهيه عن طلبه كثرة مال وجـدة ولا نفوذ أمر وعلو منزلة فان من نفذ أمره فهو الى العـلم أحوج ومن علت منزلته فهو بالعـلم أحق . وروى أنس بن مالك عن النبى صـلى الله عليه وسـلم أنه قال ان الحكمة تزيد الشريف شرفا وترفع العبد المملوك حتى تجلسـه مجالس الملوك . وقـد قال بعض الادباء كل عز لا يوطده علم مذله وكل علم لا يؤيده عقل مضـله . وقال بعض علماء

السلف اذا أراد الله بالناس خيرا جعل العلم في ماوكهم والملأ في علمائهم وقال بعض البلغاء العلم عصمة الملوك لأنه يمنعهم من الظلم ويردهم الى الحلم ويصدهم عن الأذيه ويعطفهم على الرعيه فمن حقهم أن يعرفوا حقه ويستبطنوا أهله فأما المال فظل زائل وعارية مسترجعة وليس في كثرته فضيلة ولو كانت فيه فضيلة لخص الله به من اصطفاه لرسالته واجتباه لنبوته وقد كان أكثر أنبياء الله تعالى مع ما خصهم الله به من كرامته وفضلهم على سائر خلقه فقراء لا يجدون بلغة ولا يقدرون على شيء حتى صاروا في الفقر مثلا قال البحتري

فقر كفقر الانبياء وغربة * وصيانة ليس البلاء بواحد

ولعدم الفضيلة في المال منحه الله الكافر وحرمه المؤمن . قال الشاعر

كم كافر بالله أمواله * تزداد أضعافا على كفره
ومؤمن ليس له درهم * يزداد إيمانا على فقره
يالائم الدهر وأفعاله * مشتغلا يزرى على دهره
الدهر مأمور له آمر * ينصرف الدهر على أمره

وقد بين علي بن أبي طالب رضي الله عنه فضل ما بين العلم والمال فقال العلم خير من المال العلم يحرسك وأنت تحرس المال العلم حاكم والمال محكوم عليه مات خزان الاموال وبقي خزان العلم أعيانهم مفقوده وأشخاصهم في القلوب موجوده . وسئل بعض العلماء أيما أفضل المال أم العلم فقال الجواب عن هذا أيما أفضل المال أم العقل . وقال صالح بن عبد القدوس

لا خير فيمن كان خير ثنائه * في الناس قولهم غنيّ واجد

ورعا امتنع الانسان من طلب العلم لكبر سنه واستحيائه من تقصيره في صغره أن يتعلم في كبره فرضي بالجهل أن يكون موسوما به وآثره على العلم أن يصير مبتدئا به وهذا من خدع الجهل وغرور الكسل لأن العلم اذا كان فضيلة فرغبة ذوي الاسنان فيه أولى والابتداء بالفضيلة فضيلة ولأن يكون شيخا متعلما أولى من أن يكون شيخا جاهلا . حكي أن بعض الحكماء رأى شيخا كبيرا يحب النظر في العلم ويستحي فقال له ياهذا أتستحي أن تكون في آخر عمرك أفضل مما كنت في أوله . وذكر أن إبراهيم بن المهدي دخل على المأمون وعنده جماعة يتكلمون في الفقه فقال ياعم ماعندك مايقول هؤلاء فقال ياأمير المؤمنين شغلونا في الصغر واشتغلنا في الكبر فقال لم لاتتعلمه اليوم قال أو يحسن بمثلي طلب العلم قال نعم والله لأن تموت طالبا للعلم خير من أن تعيش قانعا بالجهل قال والى متى يحسن بي طلب العلم قال ماحسنت بك الحياة لان الصغير أعذر وان لم يكن في الجهل عذر لانه لم تطل به مدة التفريط ولا استمرت عليه أيام الاهمال وقد قيل في منثور الحكم جهل الصغير معذور وعلم محقور فأما الكبير فالجهل به أقبح ونقصه عليه أفضح لان علو السن اذا لم يكسبه فضلا ولم يفده علما وكانت أيامه في الجهل ماضيه ومن الفضل خاليه كان الصغير أفضل منه لان الرجاء له أكثر والامل فيه أظهر وحسبك نقصا في رجل يكون الصغير المساوي له في الجهل أفضل منه . وأنشدت لبعض أهل الادب

اذا لم يكن مر السنين مترجما * عن الفضل للانسان سميته طفلا
وما تنفع الاعوام حين تعدها * ولم تستفد فيهن علما ولا فضلا

أرى الدهر من سوء التصرف مائلا * الى كل ذى جهل كان به جهلا

وربما امتنع من طلب العلم لتعذر المادة وشغله اكتسابها عن التماس العلم وهذا وان كان أعذر من غيره مع أنه قلما يكون ذلك الا عند ذى شره وعيب وشهوة مستعبدة فينبغى أن يصرف للعلم حظا من زمانه فليس كل الزمان زمان اكتساب ولا بد للمكتسب من أوقات استراحة وأيام عطلة ومن صرف كل نفسه الى الكسب حتى لم يترك لها فراغا الى غيره فهو من عبيد الدنيا وأسراء الحرص . وقد روى عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال لكل شئ فترة فمن كانت فترته الى العلم فقد نجا . وروى عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال كونوا علماء صالحين فان لم تكونوا علماء صالحين فجالسوا العلماء واسمعوا علما يدلكم على الهدى ويردكم عن الردى . وقال بعض العلماء من أحب العلم أحاطت به فضائله . وقال بعض الحكماء من صاحب العلماء وقر ومن جالس السفهاء حقر وربما منعه من طلب العلم ما يظنه من صعوبته وبعد غايته ويخشى من قلة ذهنه وبعد فطنته وهذا الظن اعتذار ذوى النقص وخيفة أهل العجز لان الاخبار قبل الاختبار جهل والخشية قبل الابتلاء عجز وقد قال الشاعر

لا تكونن للامور هيوبا * فالى خيبة يصير الهيوب

وقال رجل لأبى هريرة رضى الله عنه أريد أن أتعلم العلم وأخاف أن أضيعه فقال كفى بترك العلم إضاعة وليس وان تفاضلت الاذهان وتفاوتت الفطن ينبغى لمن قل منها حظه أن ييأس من نيل القليل وادراك اليسير الذى يخرج به من حد الجهالة الى أدنى مراتب التخصيص فان الماء مع لينه يؤثر فى صم الصخور فكيف لا يؤثر العلم الزكى فى نفس راغب شهى

وطالب خلىّ لاسيما وطالب العلم معان . قال النبي صلى الله عليه وسلم «إن الملائكة لتضع أجنحتها لطالب العلم رضا بما يطلب» . وربما منع ذا السفاهة من طلب العلم أن يصوّر في نفسه حرفة أهله وتضايق الأمور مع الاشتغال به حتى يسمهم بالادبار ويتوسمهم بالحرمان فان رأى محبرة تطير منها وإن وجد كتابا أعرض عنه وإن رأى متحليا بالعلم هرب منه كأنه لم ير عالما مقبلا وجاهلا مدبرا ولقد رأيت من هذه الطبقة جماعة ذوى منازل وأحوال كنت أخفى عنهم ما يحببنى من محبرة وكتاب لئلا أكون عندهم مستثقلا وان كان البعد عنهم مؤنسا ومصلحا والقرب منهم موحشا ومفسدا . فقد قال بزرجمهر الجهل في القلب كالنار في الأرض يفسد ما حوله لكن اتبعت فيهم الحديث المروى عن أبي الأشعث عن أبي عثمان عن ثوبان عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال «خالطوا الناس بأخلاقهم وخالفوهم في أعمالهم» . ولذلك قال بعض البلغاء رب جهل وقيت به علما وسفه حميت به حلما وهذه الطبقة ممن لا يرجى لها صلاح ولا يؤمّل لها فلاح لأن من اعتقد أن العلم شين وأن تركه زين وأن للجهل إقبالا مجديا وللعلم إدبارا مكديا كان ضلاله مستحكما ورشاده مستبعدا وكان هو الخامس الهالك الذى قال فيه على بن أبي طالب رضى الله عنه اغد عالما أو متعلما أو مستمعا أو محبا ولا تكن الخامس فتهلك . وقد رواه خالد الحذاء عن عبد الرحمن بن أبي بكرة عن النبي صلى الله عليه وسلم مسندا وليس لمن هذه حاله في العدل نفع ولا في الاستصلاح مطمع وقد قيل لبزرجمهر مالكم لا تعاتبون الجهال فقال انا لا نكلف العمى أن يبصروا ولا الصم أن يسمعوا . وهذه الطائفة التى تنفر من العلم هذا النفور وتعاند

أهله هذا العناد ترى العقل بهذه المثابة وتنفر من العقلاء هذا النفور وتعتقد أن العاقل محارف وأن الأحمق محظوظ وناهيك بضلال من هذا اعتقاده فى العقل والعلم هل يكون لخير أهلا أو لفضيلة موضعا

وقد قال بعض البلغاء أخبث الناس المساوى بين المحاسن والمساوى وعلة هذا أنهم رءوا عاقلا غير محظوظ وعالما غير مرزوق فظنوا أن العلم والعقل هما السبب فى قلة حظه ورزقه وقد انصرفت عيونهم عن حرمان أكثر النوكى وإدبار أكثر الجهال لان فى العقلاء والعلماء قلة وعليهم من فضلهم سمة ولذلك قيل العلماء غرباء لكثرة الجهال فاذا ظهرت سمة فضلهم وصادف ذلك قلة حظ بعضهم تنوهوا بالتميز واشتهروا بالتعيين فصاروا مقصودين باشارة المتعنتين ملحوظين بايماء الشامتين والجهال والحمق لما كثروا ولم يتخصصوا انصرفت عنهم النفوس فلم يلحظ المحروم منهم بطرف شامت ولا قصد المحدود منهم باشارة عانت فلذلك ظن الجاهل المرزوق أن الفقر والضيق مختصان بالعلم والعقل دون الجهل والحمق ولو فتشت أحوال العلماء والعقلاء مع قلتهم لوجدت الاقبال فى أكثرهم ولو اختبرت أمور الجهال والحمق مع كثرتهم لوجدت الحرمان فى أكثرهم وانما يصير ذو الحال الواسعة منهم ملحوظا مشتهرا لان حظه عجب وإقباله مستغرب كما أن حرمان العاقل العالم غريب وإقلاله عجيب ولم تزل الناس على سالف الدهور من ذلك متعجبين وبه معتبرين حتى قيل لبزرجمهر ما أعجب الاشياء فقال نجح الجاهل وإكداء العاقل لكن الرزق بالحظ والجد لا بالعلم والعقل حكمة منه تعالى يدل بها على قدرته واجراء الأمور على مشيئته . . وقد قالت الحكماء لو جرت الأقسام على قدر العقول لم تعش البهائم فنظمه أبو تمام الطائى فقال

ينال الفتى من عيشه وهو جاهل * ويكدى الفتى من دهره وهو عالم
ولو كانت الأرزاق تجرى على الحجا * هلكن إذن من جهلهن البهائم

وقال كعب بن زهير بن أبى سلمى

لو كنت أعجب من شئ لأعجبنى * سعى الفتى وهو مخبوء له القدر
يسعى الفتى لأمور ليس يدركها * والنفس واحدة والهم منتشر

على أن العلم والعقل سعادة وإقبال وإن قلّ معهما المال وضاقت معهما الحال والجهل والحمق حرمان وإدبار وان كثر معهما المال واتسعت معهما الحال لأنّ السعادة ليست بكثرة المال فكم من مكثر شقىّ ومقلّ سعيد وكيف يكون الجاهل الغنىّ سعيدا والجهل يضعه أم كيف يكون العالم الفقير شقيا والعلم يرفعه . وقد قيل فى منثور الحكم كم من ذليل أعزه علمه ومن عزيز أذله جهله . وقال عبد الله بن المعتز نعمة الجاهل كروضة مزبلة . وقال بعض الحكماء كلما حسنت نعمة الجاهل ازداد قبحا . وقال بعض العلماء لبنيه يا بنىّ تعلموا العلم وان لم تنالوا به من الدنيا حظا فلأن يذم الزمان لكم أحب الىّ من أن يذم الزمان بكم . وقال بعض الأدباء من لم يفد بالعلم مالا كسب به جمالا . وأنشد بعض أهل الأدب لابن طباطبا

حسود مريض القلب يخفى أنينه * ويضحى كئيب البال عندى حزينه
يلوم على أن رحت للعلم طالبا * أجمع من عند الرواة فنونه
فأعرف أبكار الكلام وعونه * وأحفظ مما أستفيد عيونه
ويزعم أن العلم لا يكسب الغنى * ويحسن بالجهل الذميم ظنونه
فيا لائمى دعنى أغالى بقيمتى * فقيمة كل الناس ما يحسنونه

وأنا أستعيذ بالله من خدع الجهل المذله وبوادر الحمق المضله وأسأله السعادة

بعقل رادع يستقيم به من زل وعلم نافع يستهدى به من ضل . فقد روى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال «إذا استرذل الله عبدا حظر عليه العلم» فينبغي لمن زهد في العلم أن يكون فيه راغبا ولمن رغب فيه أن يكون له طالبا ولمن طلبه أن يكون منه مستكثرا ولمن استكثر منه أن يكون به عاملا ولا يطلب لتركه احتجاجا ولا للتقصير فيه عذرا . وقد قال الشاعر

لا تعذراني في الاساءة إنه * شعار الرجال من يسيء فيعذر

ولا يسوّف نفسه بالمواعيد الكاذبة وعنها بانقطاع الاشغال المتصلة فان لكل وقت شغلا ولكل زمان عذرا . وقال الشاعر

نروح ونغدو لحاجاتنا * وحاجة من عاش لا تنقضي

تموت مع المرء حاجاته * وتبقى له حاجة ما بقي

و يقصد طلب العلم وإقامته لله تعالى قاصدا وجه الله تعالى بنية خالصة وعزيمة صادقة . فقد روى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال « من تعلم علما لغير الله وأراد به غير الله فليتبوأ مقعده من النار» . وروى أبو هريرة رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال «تعلموا العلم قبل أن يرفع ورفعه ذهاب أهله فان أحدكم لا يدري متى يحتاج إليه أو متى يحتاج إلى ما عنده» وليحذر أن يطلبه لمراء أو رياء فان المماري به مهجور لا ينتفع والمرائي به محقور لا يرتفع . وروى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال «لا تعلموا العلم لتماروا به السفهاء ولا تعلموا العلم لتجادلوا به العلماء فمن فعل ذلك منكم فالنار مثواه» . وليس المماري به هو المناظر فيه طالبا للصواب منه ولكنه القاصد لدفع ما يرد عليه من فاسد أو صحيح وفيهم جاءت السنة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال « لا يجادل إلا منافق أو مرتاب» . وقال الأوزاعي اذا أراد الله بقوم شرا أعطاهم الجدل

ومنعهم العمل . وأنشد الرياشى لمصعب بن عبد الله

أجادل كل معترض ظنين * فأجعل دينه غرضا لدينى
وأترك ما علمت لرأى غيرى * وليس الرأى كالعلم اليقين
وما أنا والخصومة وهى شئ * يصرف فى الشمال وفى اليمين
فأمّا ما علمت فقد كفانى * وأمّا ما جهلت فغيرونى

وقد بين ذلك بعض العلماء فقال لصاحبه لا يمنعنك حذر المراء من حسن المناظرة فان المماري هو الذى لا يريد أن يتعلم منه أحد ولا يرجو أن يتعلم من أحد

واعلم أن لكل مطلوب باعثا والباعث على المطلوب شيآن رغبة أو رهبة فليكن طالب العلم راغبا راهبا . أما الرغبة ففى ثواب الله تعالى لطالبى مرضاته وحافظى مفترضاته . وأما الرهبة فمن عقاب الله تعالى لتاركى أوامره ومهملى زواجره فاذا اجتمعت الرغبة والرهبة أدتا إلى كنه العلم وحقيقة الزهد لأن الرغبة أقوى الباعثين على العلم والرهبة أقوى السببين فى الزهد وقد قالت الحكماء أصل العلم الرغبة وثمرته السعادة وأصل الزهد الرهبة وثمرته العبادة فاذا اقترن الزهد والعلم فقد تمت السعادة وعمت الفضيلة وان افترقا فيا ويح مفترقين فما أضر افتراقهما وأقبح انفرادهما . وقد روى عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال «من ازداد فى العلم رشدا ولم يزدد فى الدنيا زهدا لم يزدد من الله إلا بعدا» . وقال مالك بن دينار من لم يؤت من العلم ما يقمعه فما أوتى منه لا ينفعه . وقال بعض الحكماء الفقيه بغير ورع كالسراج يضىء البيت ويحرق نفسه

﴿فصل﴾ واعلم أن للعلوم أوائل تؤدى الى أواخرها ومداخل تفضى إلى حقائقها فليبتدئ طالب العلم بأوائلها لينتهى إلى أواخرها وبمداخلها

ليفضي إلى حقائقها ولا يطلب الآخر قبل الأول ولا الحقيقة قبل المدخل فلا يدرك الآخر ولا يعرف الحقيقة لان البناء على غير أس لا يبنى والثمر من غير غرس لا يجنى ولذلك أسباب فاسدة ودواع واهية . فمنها أن يكون فى النفس أغراض تختص بنوع من العلم فيدعوه الغرض إلى قصد ذلك النوع ويعدل عن مقدماته كرجل يؤثر القضاء ويتصدى للحكم فيقصد من علم الفقه إلى أدب القاضى وما يتعلق به من الدعوى والبينات أو يحب الاتسام بالشهادة فيتعلم كتاب الشهادات لئلا يصير موسوما بجهل ما يعانى فاذا أدرك ذلك ظن أنه قد حاز من العلم جمهوره وأدرك منه مشهوره ولم يرما بقى منه الا غامضا طلبه عناء وعويصا استخراجه فناء لقصور همته على ما أدرك وانصرافها عما ترك ولو نصح نفسه لعلم أن ما ترك أهم مما أدرك لان بعض العلم مرتبط ببعض ولكل باب منه تعلق بما قبله فلا تقوم الأواخر إلا بأوائلها وقد يصح قيام الاوائل بأنفسها فيصير طلب الأواخر بترك الأوائل تركا للاوائل والأواخر فاذا ليس يعرى من لوم وإن كان تارك الكل ألوم . ومنها أن يحب الاشتهار بالعلم إما التكسب أو التجمل فيقصد من العلم ما اشتهر من مسائل الجدل وطريق النظر ويتعاطى علم ما اختلف فيه دون ما اتفق عليه ليناظر على الخلاف وهو لا يعرف الوفاق ويجادل الخصوم وهو لا يعرف مذهبا مخصوصا ولقد رأيت من هذه الطبقة عددا قد تحققوا بالعلم تحقق المتكلمين واشتهروا به اشتهار المتبحرين إذا أخذوا فى مناظرة الخصوم ظهر كلامهم وإذا سئلوا عن واضح مذهبهم ضلت أفهامهم حتى انهم ليخبطون فى الجواب خبط عشواء فلا يظهر لهم صواب ولا يتقرر لهم جواب ثم لا يرون ذلك نقصا إذا عقوا فى المجالس كلاما مرصوفا ولفقوا على المخالف حجاجا ملوفا وقد جهلوا

من المذهب مايعلمه المبتدئ ويتداوله الناشئ فهم دائمافى لغط مضل أوغلط مذل ورأيت قوما منهم يرون الاشتغال بالمذهب تكلفا والاستكثار منه تخلفا وحاجنى بعضهم عليه فقال كيف يكون علم حافظ المذهب مستورا وعلم المناظر علما مشهورا فقلت كيف يكون علم حافظ المذهب مستورا وهوسريع الجواب كثير الصواب لانه ان لم يسئل سكت فلم يعرف والمناظر ان لم يسئل سأل فعرف وقلت أليس اذا سئل الحافظ فأصاب بان فضله قال نعم قلت أفليس إذا سئل المناظر فأخطأ بان نقصه وقد قيل عند الامتحان يكرم المرء أويهان فأمسك عن جوابى لانه ان أنكر كابر المعقول ولو اعترف لزمته الحجة والامساك إذعان والسكوت رضا ولأن ينقاد إلى الحق أولى من أن يستفزه الباطل وهذه طريقة من يقول اعرفونى وهوغير عروف ولامعروف وبعيد ممن لايعرف العلم أن يعرفه به . وقد قال زهير

ومهما تكن عند امرئ من خليقة * وإن خالها تخفى على الناس تعلم

ومن أسباب التقصير أيضا أن يغفل عن التعلم فى الصغر ثم يشتغل به فى الكبر فيستحيى أن يبتدئ بما يبتدئ الصغير ويستنكف أن يساويه الحدث الغرير فيبدأ بأواخر العلوم وأطرافها ويهتم بحواشيها وأكنافها ليتقدم على الصغير المبتدى ويساوى الكبير المنتهى وهذا ممن رضى بخداع نفسه وقنع بداهنة حسه لان معقوله ان أحس ومعقول كل ذى حس يشهد بفساد هذا التصور وينطق باختلال هذا التخيل لانه شئ لايقوم فى وهم وجهل مايبتدئ به المتعلم أقبح من جهل ماينتهى اليه العالم . وقد قال الشاعر

ترق الى صغير الأمر حتى * يرقيك الصغير الى الكبير
فتعرف بالتفكر فى صغير * كبيرا بعد معرفة الصغير

ولهذا المعنى وأشباهه كان التعلم فى الصغر أحمد . روى مروان بن سالم عن اسمعيل بن أبى الدرداء قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « مثل الذى يتعلم فى صغره كالنقش على الصخر والذى يتعلم فى كبره كالذى يكتب على الماء» . وقال على بن أبى طالب كرم الله وجهه قلب الحدث كالأرض الخالية ما ألقى فيها من شئ قبلته وانما كان ذلك لان الصغير أفرغ قلبا وأقل شغلا وأيسر تبذلا وأكثر تواضعا

وقد قيل فى منثور الحكم المتواضع من طلاب العلم أكثرهم علما كما أن المكان المنخفض أكثر البقاع ماء فأما أن يكون الصغير أضبط من الكبير اذا عرى من هذه الموانع وأوعى منه اذا خلا من هذه القواطع فلا . حكى أن الأحنف بن قيس سمع رجلا يقول التعلم فى الصغر كالنقش على الحجر فقال الأحنف الكبير أكثر عقلا ولكنه أشغل قلبا ولعمرى لقد فحص الأحنف عن المعنى وبينه ونبه على العلة لأن قواطع الكبير كثيرة فمنها ماذكرنا من الاستحياء . وقد قيل فى منثور الحكم من رق وجهه رق علمه . وقال الخليل بن أحمد يرتع الجهل بين الحياء والكبر فى العلم ومنها وفور شهواته وتقسم أفكاره . وقال الشاعر

صرف الهوى عن ذى الهوى عزيز * إن الهوى ليس له تمييز

وقال بعض البلغاء القلب اذا علق كالرهن اذا غلق ومنها الطوارق المزعجة والهموم المذهلة . وقد قيل فى منثور الحكم الهم قيد الحواس . وقال بعض البلغاء من بلغ أشده لاقى من العيش أشده ومنها كثرة أشغاله وترادف أحواله حتى إنها تستوعب زمانه وتستنفد أيامه فاذا كان ذا رئاسة ألهته وإن كان ذا معيشة قطعته ولذلك قيل تفقهوا قبل أن تسودوا وقال بزرجمهر الشغل مجهده والفراغ مفسده فينبغى لطالب العلم

أن لا ينى فى طلبه و ينتهز الفرصة فيه فربما شح الزمان بما سمح وضن بما منح و يبتدئ من العلم بأوّله و يأتيه من مدخله ولا يتشاغل بطلب ما لا يضر جهله فيمنعه ذلك من إدراك ما لا يسعه جهله فان لكل علم فضولا مذهلة وشذورا مشغلة إن صرف إليها نفسه قطعته عما هو أهم منها . وقال ابن عباس رضى الله عنهما العلم أكثر من أن يحصى فخذوا من كل شئ أحسنه . وقال بعض الحكماء بترك ما لا يعنيك يتم لك ما يعنيك ولا ينبغى أن يدعوه ذلك إلى ترك ما استصعب عليه إشعارا لنفسه أن ذلك من فضول عمله و إعذارا لها فى ترك الاشتغال به فان ذلك مطية النوكى وعذر المقصرين ومن أخذ من العلم ما تسهل وترك منه ما تعذر كان كالقانص إذا امتنع عليه الصيد تركه فلا يرجع إلا خائبا إذ ليس يرى الصيد إلا ممتنعا كذلك العلم طلبه صعب على من جهله سهل على من علمه لأن معانيه التى يتوصل إليها مستودعة فى كلام مترجم عنها وكل كلام مستعمل فهو يجمع لفظا مسموعا ومعنى مفهوما فاللفظ كلام يعقل بالسمع والمعنى تحت اللفظ يفهم بالقلب . وقد قال بعض الحكماء العلوم مطالعها من ثلاثة أوجه قلب مفكر ولسان معبر و بيان مصور فاذا عقل الكلام بسمعه فهم معانيه بقلبه واذا فهم المعانى سقط عنه كلفة استخراجها و بقى عليه معاناة حفظها واستقرارها لأن المعانى شوارد تضل بالاغفال والعلوم وحشية تنفر بالارسال فاذا حفظها بعد الفهم أنست واذا كررها بعد الأنس رست . وقال بعض العلماء من أكثر المذاكرة بالعلم لم ينس ما علم واستفاد ما لم يعلم . وقال الشاعر

اذا لم يذاكر ذو العلوم بعلمه * ولم يستفد علما نسى ما تعلما

فكم جامع للكتب من كل مذهب * يزيد مع الأيام فى جمعه عمى

وان لم يفهم معانى ما سمع كشف عن السبب المانع منها ليعلم العلة فى تعذر فهمها فانه بمعرفة أسباب الأشياء وعللها يصل الى تلافى ما شذ وصلاح مافسد وليس يخلو السبب المانع من ذلك من ثلاثة أقسام إما أن يكون لعلة فى الكلام المترجم واما أن يكون لعلة فى المعنى المستودع واما أن يكون لعلة فى السامع المستخرج . فان كان السبب المانع من فهمها لعلة فى الكلام المترجم عنها لم يخل ذلك من ثلاثة أحوال . أحدها أن يكون لتقصير اللفظ عن المعنى فيصير تقصير اللفظ عن ذلك المعنى سببا مانعا من فهم ذلك المعنى وهذا يكون من أحد وجهين إما من حصر المتكلم وعيه وإما من بلادته وقلة فهمه . والحال الثانية أن يكون لزيادة اللفظ على المعنى فتصير الزيادة علة مانعة من فهم المقصود منه وهذا قد يكون من أحد وجهين إما من هذر المتكلم واكثاره واما لسوء ظنه بفهم سامعه . والحال الثالثة أن يكون لمواضعة يقصدها المتكلم بكلامه فاذا لم يعرفها السامع لم يفهم معانيها فأما تقصير اللفظ وزيادته فمن الاسباب الخاصة دون العامة لانك لست تجد ذلك عاما فى كل كلام وانما تجده فى بعضه فان عدلت عن الكلام المقصر إلى الكلام المستوفى وعن الزائد إلى الكافى أرحت نفسك من تكلف ما يكدر خاطرك وإن أقمت على استخراجه إما لضرورة دعتك إليه عند إعواز غيره أو لحمية داخلتك عند تعذر فهمه فانظر فى سبب الزيادة والتقصير فان كان التقصير لحصر والزيادة لهذر سهل عليك استخراج المعنى منه لأن ماله من الكلام محصول لا يجوز أن يكون المختل منه أكثر من الصحيح وفى الاكثر على الاقل دليل وإن كانت زيادة اللفظ على المعنى لسوء ظن المتكلم بفهم السامع كان استخراجه أسهل وإن كان تقصير اللفظ عن المعنى لسوء فهم المتكلم فهو أصعب الامور حالا

وأبعدها استخراجا لان مالم يفهمه مكلمك فأنت من فهمه أبعد إلا أن تكون بفرط ذكائك وجودة خاطرك تتنبه باشارته على استنباط ماعجز عنه واستخراج ماقصر فيه فتكون فضيلة الاستيفاء لك وحق التقدم له .

وأما المواضعة فضربان عامة وخاصة . فأما العامة فهي مواضعة العلماء فيما جعلوه ألقابا لمعان لا يستغني المتعلم عنها ولا يقف على معنى كلامهم إلا بها كما جعل المتكلمون الجواهر والاعراض والاجسام ألقابا وضعوها لمعان اتفقوا عليها ولست تجد من العلوم علما يخلو من هذا وهذه المواضعة العامة تسمى عرفا

وأما الخاصة فواضعة الواحد يقصد بباطن كلامه غير ظاهره فاذا كانت في الكلام كانت رمزا وإن كانت في الشعر كانت لغزا فأما الرمز فلست تجده في علم معنوي ولا كلام لغوي وانما يختص غالبا بأحد شيئين إما بمذهب شنيع يخفيه معتقده ويجعل الرمز سببا لتطلع النفوس إليه واحتمال التأويل فيه سببا لدفع التهمة عنه وإما لما يدعي أربابه أنه علم معوز وأن ادراكه بديع معجز كالصنعة التي وضعها أربابها اسما لعلم الكيمياء فرمزوا بأوصافه وأخفوا معانيه ليوهموا الشح به والاسف عليه خديعة للعقول الواهية والآراء الفاسدة . وقد قال الشاعر

منعت شيأفأ كثرت الولوع به * وحب شيء الى الانسان مامنعا

ثم ليكونوا برآء من عهدة ما قالوه إذا جرب ولو كان ماتضمن هذين النوعين وأشباههما من الرموز معنى صحيحا وعلما مستفادا لخرج من الرمز الخفي إلى العلم الجلي فان أغراض الناس مع اختلاف أهوائهم لا تتفق على ستر سليم وإخفاء مفيد . وقد قال زهير

الستر دون الفاحشات ولا * يلقاك دون الخير من ستر

وربما استعمل الرمز من الكلام فيما يراد تفخيمه من المعانى وتعظيمه من الالفاظ ليكون أحلى فى القلوب موقعا وأجل فى النفوس موضعا فيصير بالرمز سائرا وفى الصحف مخلدا كالذى حكى عن فيثاغورس فى وصاياه المرموزة أنه قال احفظ ميزانك من الندى وأوزانك من الصدى يريد بحفظ الميزان من الندى حفظ اللسان من الخنا وحفظ الاوزان من الصدى حفظ العقل من الهوى فصار بهذا الرمز مستحسنا ومدونا ولو قاله باللفظ الصريح والمعنى الفصيح لما سار عنه ولا استحسن منه وعلة ذلك أن المحجوب عن الافهام كالمحجوب عن الابصار فيما يحصل له فى النفوس من التعظيم وفى القلوب من التفخيم وما ظهر منها ولم يحتجب هان واسترذل وهذا إنما يصح استحلاؤه فيما قل وهو باللفظ الصريح مستقل . فأما العلوم المنتشرة التى تتطلع النفوس اليها فقد استغنت بقوة الباعث عليها وشدة الداعى إليها عن الاستدعاء إليها برمز مستحلى ولفظ مستغرب بل ذلك منفر عنها لما فى الاشتغال باستخراج رموزها من الابطاء عن دركها وتصور معانيها فهذا حال الرمز . وأما اللغز فهو تحدى أهل الفراغ وشغل ذوى البطالة ليتنافسوا فى تباين قرائحهم ويتفاخروا فى سرعة خواطرهم فيستكدوا خواطر قد منحوا صحتها فيما لا يجدى نفعا ولا يفيد علما فهم كأهل الصراع الذين قد صرفوا ما منحوه من صحة أجسامهم إلى صراع كدود يصرع عقولهم ويهد أجسامهم لا يكسبهم حمدا ولا يجدى عليهم نفعا انظر الى قول الشاعر

رجل مات وخلف رجلا * ابن أم ابن أخى أخت أبيه (١)

(١) تنبيه — معنى قول الشاعر (ابن أم ابن أخى أخت أبيه) ان الرجل الذى خلفه الميت هو ابن عم الميت على ما يظهر لى فان أخت أبيه هى عمته وأخوها عمه وابن أخيها ابن عمه وابن أم ابن عمه ابن عمه

معـــه أم بـنى أولاده * وأبا أخت بنى عم أخيه

أخبرنى عن هذين البيتين وقدر وعلك صعوبة ماتضمناه من السؤال إذا استكذلك الفكر فى استخراجه فعلمت أنه أراد ميتا خلف أبا وزوجة وعما ما الذى أفادك من العلم ونفى عنك من الجهل ألست بعد علمه تجهل ما كنت جاهلا من قبله ولو أن السائل قلب لك السؤال فأخر ما قدم وقدم ما أخر لكنت فى الجهل به قبل استخراجه كما كنت فى الجهل الاول وقد كددت نفسك وأتعبت خاطرك ثم لاتعدم أن يرد عليك مثل هذا مما تجهله فتكون فيه كما كنت قبله فاصرف نفسك تولى الله رشدك عن علوم النوكى وتكلف البطالين . فقد روى عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال «من حسن اسلام المرء تركه مالا يعنيه» . ثم اجعل ما منّ الله به عليك من صحة القريحة وسرعة الخاطر مصروفا إلى علم مايكون انفاق خاطرك فيه مذخورا وكد فكرك فيه مشكورا . وقد روى سعيد بن أبى هند عن ابن عباس رضى الله عنهما قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «نعمتان مغبون فيهما

ومعنى قوله (معـه أم بنى أولاده) أن مع الرجـل الوارث أم بنى أولاد الميت وهى زوجة الميت لانها جدة أولاد الميت وأمهـم بواسطة ولا يصح حمـل أم بنى أولاد الميت على مايحتمله الكلام من زوجة أو زوجات أولاده الذكور لانهن غـير وارثات ولا على بنات الميت لان الام مفردة فيتعين حملها على زوجـة الميت وان كانت أم بنى أولاده بواسطة

ومعنى قوله (وأبا أخت بنى عم أخيه) أن الميت خلف أيضا عمه لان بنى عم أخيه بنوعمه وأختهم بنت عمه وأبوها عمـه فالعم اذن مأخوذ من الشـطر الثانى من البيت الثانى والزوجة مأخوذة من الشـطر الاول من البيت الثانى وهذا موافق لما قاله المؤلف بقى مايؤخـذ من الشـطر الثانى من البيت الاول وهو على ما فدمنا ابن العم وهو مخالف لما قاله المؤلف فليحرر

محمد شريف سليم

كثير من الناس الصحة والفراغ» ونحن نستعيذ بالله من أن نغبن فضل نعمته علينا ونجهل نفع إحسانه الينا . وقد قيل فى منثور الحكم من الفراغ تكون الصبوة . وقال بعض البلغاء من أمضى يومه فى غير حق قضاه أو فرض أداه أو مجد أثله أو حمد حصله أو خير أسسه أو علم اقتبسه فقد عق يومه وظلم نفسه . وقال بعض الشعراء

لقد هاج الفراغ عليك شغلا * وأسباب البلاء من الفراغ

فهذا تعليل ما فى الكلام من الاسباب المانعة من فهم معانيه حتى خرج بنا الاستيفاء الى الاطالة والكشف الى الانمحاض

وأما القسم الثانى وهو أن يكون السبب المانع من فهم السامع لعلة فى المعنى المستودع فلا يخلو حال المعنى من ثلاثة أقسام إما أن يكون مستقلا بنفسه أو يكون مقدمة لغيره أو يكون نتيجة من غيره . فأما المستقل بنفسه فضربان جلى وخفى فأما الجلى فهو يسبق إلى فهم متصوره من أول وهلة وليس هذا من أقسام ما يشكل على ذى تصور وأما الخفى فيحتاج فى إدراكه الى زيادة تأمل وفضل معاناة لينجلى عما أخفى وينكشف عما أغمض وباستعمال الفكر فيه يكون الارتياض به وبالارتياض به يسهل منه ما استصعب ويقرب منه ما بعد فان للرياضة جراءة وللدراية تأثيرا . وأما ما كان مقدمة لغيره فضربان أحدهما أن تقوم المقدمة بنفسها وإن تعدت الى غيرها فتكون كالمستقل بنفسه فى تصوره وفهمه وإن كان مستدعيا لنتيجته والثانى أن يكون مفتقرا الى نتيجته فيتعذر فهم المقدمة إلا بما يتبعها من النتيجة لانها تكون بعضا وتبعيض المعنى أشكل له وبعضه لا يغنى عن كله . وأما ما كان نتيجة لغيره فهو لا يدرك الا بأوله ولا يتصور على حقيقته الا بمقدمته والاشتغال به قبل المقدمة عناء واتعاب الفكر فى استنباطه قبل قاعدته

أذى . فهذا يوضح تعليل ما فى المعانى من الاسباب المانعة من فهمها وأما القسم الثالث وهو أن يكون السبب المانع لعلة فى المستمع فذلك ضربان أحدهما من ذاته والثانى من طارئ عليه فأما ما كان من ذاته فيتنوع نوعين أحدهما ما كان مانعا من تصوّر المعنى وفهمه والثانى ما كان مانعا من حفظه بعد تصوره وفهمه فأما المانع من تصور المعنى وفهمه فهو البلادة وقلة الفطنة وهو الداء العياء . وقد قال بعض الحكماء إذا فقد العالم الذهن قلّ على الاضداد احتجاجه وكثر الى الكتب احتياجه وليس لمن بلى به إلا الصبر والاقلال لانه على القليل أقدر وبالصبر أحرى أن ينال ويظفر . وقد قال بعض الحكماء قدّم لحاجتك بعض لحاجتك وليس يقدر على الصبر من هذه حالته الا أن يكون غالب الشهوة بعيد الهمة فيشعر قلبه الصبر لقوّة شهوته و يكلف جسده احتمال التعب لبعد همته فاذا لاح له المعنى بمساعدة الشهوة أعقبه ذلك إلحاح الآملين ونشاط المدركين فقلّ عنده كل كثير وسهل عليه كل عسير . وقد روى عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال «لا تنالون ما تحبون إلا بالصبر على ما تكرهون ولا تبلغون ما تهوون إلا بترك ما تشتهون» . وقيل فى منثور الحكم أتعب قدمك فكم من تعب قدمك . وقال بعض البلغاء إذا اشتد الكلف هانت الكلف . وأنشد بعض أهل الأدب لعلىّ بن أبى طالب كرم الله وجهه

لا تعجزن ولا تدخلك مضجرة * فالنجح يهلك بين العجز والضجر

وأما المانع من حفظه بعد تصوّره وفهمه فهو النسيان الحادث عن غفلة التقصير و إهمال التوانى فينبغى لمن بلى به أن يستدرك تقصيره بكثرة الدرس ويوقظ غفلته بادامة النظر فقد قيل لن يدرك العلم من لا يطيل

درسه ويكد نفسه وكثرة الدرس كدود لا يصبر عليه الا من يرى العلم مغنما والجهالة مغرما فيحتمل تعب الدرس ليدرك راحة العلم ويني عنه مغرة الجهل فان نيل العظيم بأمر عظيم وعلى قدر الرغبة يكون الطلب وبحسب الراحة يكون التعب وقد قيل علة الراحة قلة الاستراحة . وقال بعض الحكماء أكمل الراحة ما كانت عن كد التعب وأعز العلم ما كان عن ذل الطلب وربما استثقل المتعلم الدرس والحفظ واتكل بعد فهم المعاني على الرجوع إلى الكتب والمطالعة فيها عند الحاجة فلا يكون إلا كمن أطلق ما صاده ثقة بالقدرة عليه بعد الامتناع منه فلا تعقبه الثقة الا خجلا والتفريط إلا ندما وهذه حال قد يدعو اليها أحد ثلاثة أشياء إما الضجر من معاناة الحفظ ومراعاته وطول الامل في التوفر عليه عند نشاطه وفساد الرأي في عزيمته وليس يعلم أن الضجور خائب وأن الطويل الامل مغرور وأن الفاسد الرأي مصاب والعرب تقول في أمثالها حرف في قلبك خير من ألف في كتبك وقالوا الاخير في علم لا يعبر معك الوادي ولا يمر بك النادي وأنشدت عن الربيع للشافعي رضي الله عنه

علمي معي حيثما يمت يتبعني * قلبي وعاءه لا بطن صندوق
ان كنت في البيت كان العلم فيه معي * أو كنت في السوق كان العلم في السوق

وربما اعتنى المتعلم بالحفظ من غير تصور ولا فهم حتى يصير حافظا لالفاظ المعاني فيما بتلاوتها وهو لا يتصورها ولا يفهم ما تضمنته يروي بغير روية ويخبر عن غير خبرة فهو كالكتاب الذي لا يدفع شبهة ولا يؤيد حجة . وقد روى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال « همة السفهاء الرواية وهمة العلماء الرعاية » . وقال ابن مسعود رضي الله عنه كونوا للعلم رعاة ولا تكونوا له

رواة فقد يرعوى من لا يروى ويروى من لا يرعوى . وحدث الحسن البصرى بحديث فقال له رجل يا أبا سعيد عمن قال ما تصنع بعمن أما أنت فقد نالتك عظته وقامت عليك حجته وربما اعتمد على حفظه وتصوره وأغفل تقييد العلم فى كتبه ثقة بما استقر فى ذهنه وهذا خطأ منه لأن الشك معترض والنسيان طارق . وقد روى أنس بن مالك عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال « قيدوا العلم بالكتاب » . وروى أن رجلا شكا الى النبى صلى الله عليه وسلم النسيان فقال له استعمل يدك أى اكتب حتى ترجع اذا نسيت الى ما كتبت . وقال الخليل بن أحمد اجعل ما فى الكتب رأس المال وما فى قلبك النفقة . وقال مهبوذ لولا ما عقدته الكتب من تجارب الأولين لانحل مع النسيان عقود الآخرين . وقال بعض البلغاء إن هذه الآداب نوافر تندّ عن عقل الأذهان فاجعلوا الكتب عنها حماة والأقلام لها رعاة وأما الطارئ فنوعان أحدهما شبهة تعترض المعنى فتمنع من تصوره وتدفع عن ادراك حقيقته فينبغى أن يزيل تلك الشبهة عن نفسه بالسؤال والنظر ليصل إلى تصوّر المعنى وإدراك حقيقته . ولذلك قال بعض العلماء لا تخل قلبك من المذاكرة فتعود عقيما ولا تعف طبعك من المناظرة فتصير سقيما . وقال بشار بن برد

شفاء العمى طول السؤال وانما * دوام العمى طول السكوت على الجهل
فكن سائلا عما عنالك فانما * دعيت أخا عقل لتبحث بالعقل

. والثانى أفكار تعارض الخاطر فتذهل عن تصوّر المعنى وهذا سبب قلما يعرى منه أحد لاسيما من انبسطت آماله واتسعت أمانيه وقد يقل فيمن لم يكن له فى غير العلم أرب ولا فيما سواه همة فان طرأت على الانسان لم يقدر على مكابرة

نفسه على الفهم وغلبة قلبه على التصوّر لان القلب مع الاكراه أشد نفورا وأبعد قبولا وقد جاء فى الأثر بان القلب إذا أكره عمى ولكن يعمل فى دفع ماطرأ عليه من هم مذهل أو مكر قاطع ليستجيب له القلب مطيعا . وقد قال الشاعر

وليس بمغن فى المودّة شافع * اذا لم يكن بين الضلوع شفيع

وقال بعض الحكماء إن لهذه القلوب تنافرا كتنافر الوحش فتألفوها بالاقتصاد فى التعليم والتوسط فى التقديم لتحسن طباعها ويدوم نشاطها فهذا تعليل ما فى المستمع من الأسباب المانعة من فهم المعانى . وهاهنا قسم رابع يمنع من معرفة الكلام وفهم معانيه ولكنه قد يعرى من بعض الكلام فلذلك لم يدخل فى جملة أقسامه ولم نستجز الاخلال بذكره وهو الخط لأن من الكلام ما كان مسموعا لا يحتاج فى فهمه الى تأمل الخط به والمانع من فهمه هو على ماذكرنا من أقسامه ومنه ما كان مستودعا بالخط محفوظا بالكتابة مأخوذا بالاستخراج فكان الخط حافظا له ومعبرا عنه . وقد روى عن ابن عباس رضى الله عنهما فى قوله تعالى أو أثارة من علم قال الخط . وعن مجاهد فى قوله تعالى يؤتى الحكمة من يشاء ومن يؤت الحكمة فقد أوتى خيرا كثيرا يعنى الخط والعرب تقول الخط أحد اللسانين وحسنه إحدى الفصاحتين . وقال جعفر بن يحيى الخط سمط الحكمة به يفصل شذورها وينظم منثورها . وقال ابن المقفع اللسان مقصور على القريب الحاضر والقلم على الشاهد والغائب . وقال حكيم الروم الخط هندسة روحانية وان ظهرت بآلة جسمانية . وقال حكيم العرب الخط أصيل فى الروح وان ظهر بحواس الجسد . واختلف فى أول من كتب الخط فذكر كعب

الأحبار أن أوّل من كتب آدم عليه السلام كتب سائر الكتب قبل موته بثلثمائة سنة فى طين ثم طبخه فلما غرقت الارض فى أيام نوح على نبينا وعليه السلام بقيت الكتابة فأصاب كل قوم كتابهم و بقى الكتاب العربى إلى أن خص الله تعالى به اسمعيل فأصابه وتعلمها . وحكى ابن قتيبة أن أول من كتب إدريس على نبينا وعليه السلام وكانت العرب تعظم قدر الخط وتعدّه من أجل نافع حتى قال عكرمة بلغ فداء أهل بدر أربعة آلاف حتى ان الرجل ليفادى على أنه يعلم الخط لما هو مستقر فى نفوسهم من عظم خطره وجلالة قدره وظهور نفعه وأثره . وقد قال الله تعالى لنبيه صلى الله عليه وسلم اقرأ وربك الأكرم الذى علم بالقلم فوصف نفسه بأن علم بالقلم كما وصف نفسه بالكرم وعدّ ذلك من نعمه العظام ومن آياته الجسام حتى أقسم به فى كتابه فقال سبحانه وتعالى ن والقلم وما يسطرون فأقسم بالقلم كما أقسم بما يخط بالقلم واختلف فى أول من كتب بالعربية فذكر كعب الأحبار أن أول من كتب بها آدم عليه السلام ثم وجدها بعد الطوفان اسمعيل على نبينا وعليه السلام . وحكى ابن عباس رضى الله عنهما أن أول من كتب بها ووضعها اسمعيل عليه السلام على لفظه ومنطقه . وحكى عروة بن الزبير رضى الله عنه أن أول من كتب بها قوم من الأوائل أسماؤهم أبجد وهوّز وحطى وكلمن وسعفص وقرشت وكانوا ملوك مدين . وحكى ابن قتيبة فى المعارف أن أول من كتب بالعربى مرامر بن مرة من أهل الأنبار ومن الأنبار انتشرت . وحكى المدائنى أن أول من كتب بها مرامر بن مرة وأسلم بن سدرة وعامر بن جدرة فمرامر وضع الصور وأسلم فصل ووصل وعامر وضع الاعجام ولما كان الخط بهذه الحال وجب على من أراد حفظ العلم أن يعنى بأمرين

أحدهما تقويم الحروف على أشكالها الموضوعة لها والثانى ضبط ما اشتبه منها بالنقط والاشكال المميزة لها ثم مازاد على هذين من تحسين الخط وملاحة نظمه فانما هو زيادة حذق بصنعته وليس بشرط فى صحته . وقد قال على بن عبيدة حسن الخط لسان اليد وبهجة الضمير . وقال أبو العباس المبرد رداءة الخط زمانة الأدب . وقال عبد الحميد البيان فى اللسان والبنان . وأنشدنى بعض أهل العلم لأحد شعراء البصرة

اعذر أخاك على رداءة خطه * واغفر نذالته لجودة ضبطه
واعلم بأن الخط ليس يرادمن * تركيبه الا تبين سمطه
فاذا أبان عن المعانى لم يكن * تحسينه الا زيادة شرطه

ومحل مازاد على الخط المفهوم من تصحيح الحروف وحسن الصورة محل مازاد على الكلام المفهوم من فصاحة الألفاظ وصحة الاعراب ولذلك قالت العرب حسن الخط إحدى الفصاحتين وكما أنه لا يعذر من أراد التقدم فى الكلام أن يطرح الفصاحة والاعراب وان فهم وأفهم كذلك لا يعذر من أراد التقدم فى الخط أن يطرح تصحيح الحروف وتحسين الصور وان فهم وأفهم وربما تقدم بالخط من كان الخط أجل فضائله وأشرف خصائله حتى صار علما مشهورا وسيدا مذكورا غير أن العلماء اطرحوا صرف الهمة إلى تحسين الخط لأنه يشغلهم عن العلم ويقطعهم عن التوفر عليه ولذلك تجد خطوط العلماء فى الأغلب رديئة إلا من أسعده القضاء وقد قال الفضل بن سهل من سعادة المرء أن يكون ردىء الخط ليكون الزمان الذى يفنيه بالكتابة يشغله بالحفظ والنظر وليست رداءة الخط هى السعادة وانما السعادة أن لا يكون له صارف عن العلم وعادة ذى الخط الحسن أن

يتشاغل بتحسين خطه عن العلم فمن هذا الوجه صار رداءة خطه سعيدا وان لم تكن رداءة الخط سعادة واذا كان ذلك كذلك فقد يعرض للخط أسباب تمنع من قراءته ومعرفته كما يعرض للكلام أسباب تمنع من فهمه وصحته والأسباب المانعة من قراءة الخط وفهم ما تضمنه قد تكون من ثمانية أوجه (الوجه الاول) اسقاطه ألفاظا من أثناء الكلام يصير الباقى بها مبتورا لا يعرف استخراجه ولا يفهم معناه وهذا يكون إما من سهو الكاتب أو من فساد نقله وهذا يسهل استنباطه على من كان مرتاضا بذلك النوع فيستدل بحواشى الكلام وما سلم منه على ما سقط أو فسد لاسيما اذا قلّ لأنّ الكلمة تستدعى ما يليها ومعرفة المعنى توضح عن الكلام المترجم عنه فأما من كان قليل الارتياض بذلك النوع فانه يصعب عليه استنباط المعنى منه لاسيما اذا كان كثير الأنه يحتاج فى فهم المعانى الى الفكرة والروية فيما قد استخرجه بالكتابة فاذا هو لم يعرف تمام الكلام المترجم عن المعنى قصر فهمه عن ادراكه وضلّ فكره من استنباطه (والوجه الثانى) زيادة ألفاظ فى أثناء الكلام يشكل بها معرفة الصحيح غير الزائد من معرفة السقيم الزائد فيصير الكل مشكلا وهذا لا يكاد يوجد كثيرا الا أن يقصد الكاتب تعمية كلامه فيدخل فى أثنائه ما يمنع من فهمه فيصير ذلك رمزا يعرف بالمواضعة فأما وقوعه سهوا فقد يكون بالكلمة والكلمتين وذلك لا يمنع من فهمه على المرتاض وغيره (والوجه الثالث) اسقاط حروف من أثناء الكلمة تمنع من استخراجها على الصحة وقد يكون هذا تارة من السهو فيقلّ وتارة من ضعف الهجاء فيكثر والقول فيه كالقول فى الوجه الأول (والوجه الرابع) زيادة حروف فى أثناء الكلمة يشكل بها معرفة الصحيح من حروفها وهذا

يكون تارة من سهو الكاتب فيقل ولا يمنع من استخراج الصحيح ويكون تارة لتعمية ومواضعة يقصدها الكاتب اخفاء غرضه فيكثر كالتراجم ويكون القول فيه كالقول فى الوجه الثانى (والوجه الخامس) وصل الحروف المفصولة وفصل الحروف الموصولة فيدعو ذلك إلى الاشكال لأن الكلمة ينبه عليها وصل حروفها ويمنع فصلها من مشاركة غيرها فان كان ذلك من سهو قل فسهل استخراجه وان كان ذلك من قلة معرفة بالخط أو مشقا تسبق به اليد كثر فصعب استخراجه إلا على المرتاض به . ولذلك قال عمر بن الخطاب رضى الله عنه شر الكتابة المشق كما أن شر القراءة الهذرمة وان كان للتعمية والرمز لا يعرف إلا بالمواضعة (والوجه السادس) تغيير الحروف عن أشكالها وإبدالها بأغيارها حتى يكتب الحاء على شكل الباء والصاد على شكل الراء وهذا يكون فى رموز التراجم لا يوقف عليه إلا بالمواضعة إلا لمن قد زاد فيه الذكاء فيقدر على استخراج المعمى (والوجه السابع) ضعف الخط عن تقويم الحروف على الاشكال الصحيحة واثباتها على الأوصاف الحقيقية حتى لا تكاد الحروف تمتاز عن أغيارها حتى تصير العين الموصولة كالفاء والمفصولة كالحاء وهذا يكون من رداءة الخط وضعف اليد واستخراج ذلك ممكن بفضل المعاناة وشدة التأمل وان كان ربما أضجر قارئه وأوهى معانيه . ولذلك قيل إن الخط الحسن ليزيد الحق وضوحا (والوجه الثامن) اغفال النقط والاشكال التى تميز بها الحروف المشتبهة وهذا أيسر أمرا وأخف حالا لأن من كان متميزا بصحة الاستخراج ومعرفة الخط لم تخف عليه معرفة الخط وفهم ما تضمنه مع اغفال النقط والاشكال بل قد استقبح الكتاب ذلك فى المكاتبات ورأوه من تقصير

الكاتب أو سوء ظنه بفهم المكاتب وكان استقباحهم له فى مكاتبة الرؤساء أكثر . حكى قدامة بن جعفر أن بعض كتاب الدواوين حاسب عاملا فشكا العامل منه إلى عبيد الله بن سليمان وكتب رقعة يذكر فيها احتجاجا لصحة دعواه ووضوح شكواه فوقع فيها عبيد الله بن سليمان هذا هذا فأخذها العامل وقرأها فظن أن عبيد الله أراد بهذا هذا اثباتا لصحة دعواه وصدق قوله كما يقال فى اثبات الشئ هو هو فحمل الرقعة الى كاتب الديوان وأراه خط عبيد الله وقال له ان عبيد الله قد صدق قولى وصح ماذكرت فخفى على الكاتب ذلك وأطيف به على كتاب الدواوين فلم يقفوا على مراد عبيد الله فرد إليه ليسأل عن مراده فشدد عبيد الله الكلمة الثانية وكتب تحتها والله المستعان استعظاما منه لتقصيرهم فى استخراج مراده حتى احتاج إلى إبانته بالشكل فهذه حال الكتاب فى استقباحهم إعجام المكاتبات بالنقط والاشكال فأما غير المكاتبات من سائر العلوم فلم يروه قبيحا بل استحسنوه لاسيما فى كتب الأدب التى يقصد بها معرفة صيغة الالفاظ وكيفية مخارجها مثل كتب النحو واللغة والشعر والغريب فان الحاجة الى ضبطها بالشكل والاعجام أكثر وهى مما سواه من العلوم أيسر وقد قال الثورى الخطوط المعجمة كالبرود المعلمة . وقال بعض البلغاء إعجام الخط يمنع من استعجامه وشكله يؤمن من إشكاله . وقال بعض الأدباء رب علم لم تعجم فصوله فاستعجم محصوله وكما استقبح الكتاب الشكل والاعجام فى المكاتبات وإن كان فى كتب العلوم مستحسنا فكذلك استحسنوا مشق الخط فى المكاتبات وإن كان فى العلوم مستقبحا وسبب ذلك أنهم لفرط إدلالهم بالصنعة وتقدمهم فى الكتابة يكتفون بالاشارة ويقتصرون على التلويح ويرون

الحاجة إلى استيفاء شروط الابانة تقصيرا ولقصد ما يعتقدونه من التقدم بهذا الحال رأوا مانبه عليه من سواد المداد أثرا جميلا وعلى الفضل والتخصيص دليلا . حكي أن عبيد الله بن سليمان رأى على بعض ثيابه أثر صفرة فأخذ من مداد الدواة فطلاه به ثم قال المداد بنا أحسن من الزعفران وأنشد

انما الزعفران عطر العذارى ❊ ومداد الدوى عطر الرجال

فهذه جملة كافية في الابانة عن الأسباب المانعة من فهم الكلام ومعرفة معانيه لفظا كان أو خطا والله ولي التوفيق

فينبغي لطالب العلم أن يكشف عن الاسباب المانعة من فهم المعنى ليسهل عليه الوصول اليه ثم يكون بعد ذلك سائسا لنفسه مدبرا لها في حال تعلمه فان للنفس نفورا يفضي الى تقصير ووفورا يؤول الى سرف وقيادها عسر ولها أحوال ثلاث فحال عدل وإنصاف وحال غلو وإسراف وحال تقصير وإجحاف فأما حال العدل والانصاف فهي أن تختلف قوى النفس من جهتين متقابلتين طاعة مسعدة وشفقة كافة فطاعتها تمنع التقصير وشفقتها ترد عن السرف وهذه أحمد الأحوال لأن ما منع من التقصير نماء وما صد عن السرف مستديم والنمو إذا استدام فأخلق به أن يستكمل . وقال بعض الحكماء إياك ومفارقة الاعتدال فان المسرف مثل المقصر في الخروج عن الحد وأما حال الغلو والاسراف فهي أن تختص النفس بقوى الطاعة وتعدم قوى الشفقة فيبعثها اختصاص الطاعة على افراغ الجهد ويفضي بها افراغ الجهد إلى عجز الكلام فيؤديها عجز الكلام الى الترك والاهمال فتصير الزيادة نقصانا والربح خسرانا . وقد قالت الحكماء طالب العلم وعامل البر كآكل الطعام

إن أخذ منه قوتا عصمه وإن أسرف فيه أبشمه وربما كان فيه منيته كأخذ الأدوية التى القصد فيها شفاء ومجاوزة الحد فيها السم المميت وأما حال التقصير والاجحاف فهى أن تختص النفس بقوى الشفقة وتعدم قوى الطاعة فيدعوها الاشفاق إلى المعصية وتمنعها المعصية من الاجابة فلا تطلب شاردا ولا تقبل عائدا ولا تحفظ مستودعا ومن لم يطلب الشارد ويقبل العائد ويحفظ المستودع فقد الموجود ولم يجد المفقود ومن فقد ما وجد فهو مصاب محزون ومن لم يجد ما فقد فهو خائب مغبون . وقد قال بعض الحكماء العجز مع الوانى والفوت مع التوانى وقد يكون للنفس مع الأحوال الثلاث حالتان مشتركتان بغلبة إحدى القوتين فيكون للنفس طاعة واشفاق واحداهما أغلب من الأخرى فان كانت الطاعة أغلب كانت إلى الوفور المجاوز أميل وان كان الاشفاق أغلب كانت الى التقصير أقرب فاذا عرف من نفسه قدر طاعتها وخبر منها كنه اشفاقها راض نفسه ليلبث على أحد حالاتها . وقد أشار إلى ما وصفنا من حال النفس الفرزدق فى قوله

لكل امرئ نفسان نفس كريمة * وأخرى يعاصيها الفتى ويطيعها
ونفسك من نفسيك تشفع للندى * إذا قل من أحرارهن شفيعها

فان أهمل سياستها وأغفل رياضتها ورام أن يأخذها بالعنف ويقهرها بالعسف استشاطت نافرة ولجت معاندة فلم تنقد إلى طاعة ولم تنكف عن معصية . وقال سابق البربرى

إذا زجرت لجوحا زدته علقا * ولجت النفس منه فى تماديها
فعد عليه اذا ما نفسه جمحت * باللين منك فان اللين يثنيها

فاذا استصعب عليه قياد نفسه ودام منه نفور قلبه مع سياستها ومعاناة رياضتها تركها ترتع راحة ثم عاودها بعد الاستراحة . وقد روى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال « ان القلب يموت ويحيا ولو بعد حين » . وقال ابن مسعود للقلوب شهوة واقبال وفترة وإدبار فأتوها من قبل شهوتها ولا تأتوها من قبل فترتها . وقال الشاعر

وما سمي الانسان الا لنسيه * ولا القلب الا أنه يتقلب

وأما الشروط التي يتوفر بها علم الطالب وينتهي معها كمال الراغب مع ما يلاحظ به من التوفيق ويمد به من المعونة فتسعة شروط (الأول) العقل الذي يدرك به حقائق الأمور (والثاني) الفطنة التي يتصور بها غوامض العلوم (والثالث) الذكاء الذي يستقر به حفظ ما تصوره وفهم ما علمه (والرابع) الشهوة التي يدوم بها الطلب ولا يسرع اليه الملل (والخامس) الاكتفاء بمادة تغنيه عن كلف الطلب (والسادس) الفراغ الذي يكون معه التوفر ويحصل به الاستكثار (والسابع) عدم القواطع المذهلة من هموم وأشغال وأمراض (والثامن) طول العمر واتساع المدة لينتهي بالاستكثار إلى مراتب الكمال (والتاسع) الظفر بعالم سمح بعلمه متأنٍّ في تعليمه فاذا استكمل هذه الشروط التسعة فهو أسعد طالب وأنجح متعلم . وقد قال الاسكندر يحتاج طالب العلم الى أربع مدة وجدة وقريحة وشهوة وتمامها في الخامس معلم ناصح

﴿فصل﴾ وسأذكر طرفا مما يتأدب به المتعلم ويكون عليه العالم * اعلم أن للمتعلم في زمان تعلمه ملقا وتذللا إن استعملهما غنم وان تركهما حرم لان

التملق للعالم يظهر مكنون علمه والتذلل له سبب لادامة صبره وباظهار مكنونه تكون الفائدة وباستدامة صبره يكون الاكثار . وقد روى معاذ عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال « ليس من أخلاق المؤمن الملق إلا فى طلب العلم » . وقال عبد الله بن عباس رضى الله عنهما ذللت طالبا فعززت مطلوبا . وقال بعض الحكماء من لم يحتمل ذل التعلم ساعة بقى فى ذل الجهل أبدا . وقال بعض حكماء الفرس إذا قعدت وأنت صغير حيث تحب قعدت وأنت كبير حيث لا تحب ثم ليعرف له فضل علمه وليشكر له جميل فعله . فقد روت عائشة رضى الله عنها عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال « من وقر عالما فقد وقر ربه » . وقال على بن أبى طالب رضى الله عنه لا يعرف فضل أهل الفضل إلا أهل الفضل . وقال بعض الشعراء

ان المعلم والطبيب كلاهما * لا ينصحان اذا هما لم يكرما
فاصبر لدائك إن جفوت طبيبه * واصبر لجهلك إن جفوت معلما

ولا يمنعه من ذلك علو منزلته إن كانت له وان كان العالم خاملا فان العلماء بعلمهم قد استحقوا التعظيم لا بالقدرة والمال . وأنشدنى بعض أهل الأدب لأبى بكر بن دريد

لا تحقرن عالما وإن خلقت * أثوابه فى عيون رامقه
وانظر إليه بعين ذى أدب * مهذب الرأى فى طرائقه
فالمسك بينا تراه مهتهنا * يقهر عطاره وساحقه
حتى تراه فى عارضى ملك * وه وضع التاج من مفارقه

وليكن مقتديا بهم فى رضى أخلاقهم متشبها بهم فى جميع أفعالهم ليصير

لها آلفا وعلمها ناشئا ولما خالفها مجانبا . فقد قال النبي صلى الله عليه وسلم «خيار شبابكم المتشبهون بشيوخكم وشرار شيوخكم المتشبهون بشبابكم» . وروى عن ابن عمر رضي الله عنهما أن النبي صلى الله عليه وسلم قال «من تشبه بقوم فهو منهم» . وأنشدني بعض أهل الأدب لأبي بكر بن دريد

العالم العاقل ابن نفسه * أغناه جنس علمه عن جنسه
كن ابن من شئت وكن مؤدبا * فانما المرء بفضل كيسه
وليس من تكرمه لغيره * مثل الذي تكرمه لنفسه

وليحذر المتعلم التبسط على من يعلمه وان آنسه والادلال عليه وان تقدمت صحبته . فقد قيل لبعض الحكماء من أذل الناس فقال عالم يجري عليه حكم جاهل وكلمت رسول الله صلى الله عليه وسلم جارية من السبي فقال لها من أنت فقالت بنت الرجل الجواد حاتم فقال صلى الله عليه وسلم «ارحموا عزيز قوم ذل ارحموا غنيا افتقر ارحموا العالم اضاع بين الجهال» . ولا يظهر له الاستكفاء منه والاستغناء عنه فان في ذلك كفرا لنعمته واستخفافا بحقه وربما وجد بعض المتعلمين قوة في نفسه لجودة ذكائه وحدة خاطره فقصد من يعلمه بالاعنات له والاعتراض عليه ازراء به وتبكيتا له فيكون كمن تقدم فيه المثل السائر لأبي البطحاء

أعلمه الرماية كل يوم * فلما استد ساعده رماني

وهذه من مصائب العلماء وانعكاس حظوظهم أن يصيروا عند من يعلمونه مستجهلين وعند من قدموه مسترذلين . وقال صالح بن عبد القدوس

وإن عناء أن تعلم جاهلا * فيحسب جهلا أنه منك أعلم

متى يبلغ البنيان يوما تمامه * اذا كنت تبنيه وغيرك يهدم
متى ينتهى عن سيئ من أتى به * اذا لم يكن منه عليه تندم

وقد رجح كثير من الحكماء حق العالم على حق الوالد حتى قال بعضهم

يا فاخرا للسفاه بالسلف * وتاركا للعلاء والشرف
آباء أجسادنا هم سبب * لأن جعلنا عرائض التلف
من علم الناس كان خير أب * ذاك أبو الروح لا أبو الجيف

ولا ينبغى أن يبعثه معرفة الحق له على قبول الشبهة منه ولا يدعوه ترك الاعتناء له على التقليد فيما أخذ عنه فانه ربما غالى بعض الأتباع فى عالمهم حتى يروا أن قوله دليل وان لم يستدل وأن اعتقاده حجة وان لم يحتج فيفضى به الأمر إلى التسليم له فيما أخذ عنه ويؤول به ذلك الى التقصير فيما يصدر منه لانه يجتهد بحسب اجتهاد من يأخذ عنه فلا يبعد أن تبطل تلك المقالة إن انفردت أو يخرج أهلها من عداد العلماء فيما شاركت لانه قد لا يرى لهم من يأخذ عنهم ما كانوا يرونه لمن أخذوا عنه فيطالبهم بما قصروا فيه فيضعفوا عن إبانته ويعجزوا عن نصرته فيذهبوا ضائعين ويصيروا عجزة مضعوفين ولقد رأيت من هذه الطبقة رجلا يناظر فى مجلس حفل وقد استدل عليه الخصم بدلالة صحيحة فكان جوابه عنها أن قال إن هذه دلالة فاسدة ووجه فسادها أن شيخى لم يذكرها ومالم يذكره الشيخ لا خير فيه فأمسك عنه المستدل تعجبا ولأن شيخه كان محتشما وقد حضرت طائفة يرون فيه مثل ما رأى هذا الجاهل ثم أقبل المستدل علىّ وقال لى والله لقد أخمنى بجهله وصار سائر الناس المبرئين من هذه الجهالة من بين مستهزئ ومتعجب ومستعيذ بالله من جهل مغرب فهل رأيت كذلك عالما أوغل فى الجهل وأدل على قلة

العقل . وإذا كان المتعلم معتدل الرأى فيمن يأخذ عنه متوسط الاعتقاد فيمن يتعلم منه حتى لا يحمله الاعنات على اعتراض المبكتين ولا يبعثه الغلو على تسليم المقلدين برئ المتعلم من المذمتين وسلم العالم من الهجنتين وليس كثرة السؤال فيما التبس إعناتا ولا قبول ما صح فى النفس تقليدا . وقد روى عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال « العلم خزائن ومفتاحه السؤال فاسألوا رحمكم الله فانما يؤجر فى العلم ثلاثة القائل والمستمع والآخذ » . وقال عليه الصلاة والسلام « هلا سألوا اذا لم يعلموا فانما شفاء العى السؤال » فأمر بالسؤال وحث عليه ونهى آخرين عن السؤال وزجر عنه فقال صلى الله عليه وسلم « أنهاكم عن قيل وقال وكثرة السؤال واضاعة المال » . وقال عليه الصلاة والسلام إياكم وكثرة السؤال فانما هلك من قبلكم بكثرة السؤال وليس هذا مخالفا للأول وانما أمر بالسؤال من قصد به علم ما جهل ونهى عنه من قصد به اعنات ما سمع واذا كان السؤال فى موضعه أزال الشكوك ونفى الشبهة . وقد قيل لابن عباس رضى الله عنهما بم نلت هذا العلم قال بلسان سؤول وقلب عقول . وروى نافع عن ابن عمر رضى الله عنهما أن النبى صلى الله عليه وسلم قال حسن السؤال نصف العلم . وأنشد المبرد عن أبى سليمان الغنوى

فسل الفقيه تكن فقيها مثله * لا خير فى علم بغير تدبر

واذا تعسرت الامور فأرجها * وعليك بالامر الذى لم يعسر

وليأخذ المتعلم حظه ممن وجد طلبته عنده من نبيه وخامل ولا يطلب الصيت وحسن الذكر باتباع أهل المنازل من العلماء اذا كان النفع بغيرهم أعم إلا أن يستوى النفعان فيكون الأخذ عمن اشتهر ذكره وارتفع قدره أولى لان الانتساب اليه أجمل والاخذ عنه أشهر . وقد قال الشاعر

اذا أنت لم يشهرك علمك لم تجد * لعلمك مخلوقا من الناس يقبله
وان صانك العلم الذى قد حملته * أتالك له من يحتنيه ويحمله

واذا قرب منك العلم فلا تطلب ما بعد واذا سهل من وجه فلا تطلب ما صعب واذا حدثت من خبرته فلا تطلب من لم تختبره فان العدول عن القريب إلى البعيد عناء وترك الأسهل بالأصعب بلاء والانتقال من المخبور إلى غيره خطر . وقد قال على بن أبى طالب رضى الله عنه عقبى الأخرق مضره والمتعسف لا تدوم له مسره . وقال بعض الحكماء القصد أسهل من التعسف والكف أوزع من التكلف وربما تتبع نفس الانسان من بعد عنه استهانة عن قرب منه وطلب ما صعب احتقارا لما سهل عليه وانتقل إلى من لم يخبره ملالا لمن خبره فلا يدرك محبوبا ولا يظفر بطائل . وقد قالت العرب فى أمثالها العالم كالكعبة يأتيها البعداء ويزهد فيها القرباء وأنشدنى بعض شيوخنا لمسيح بن حاتم

لا ترى عالما يحل بقوم * فيحلوه غير دار الهوان
فلما توجد السلامة والصحة مجموعتين فى انسان
فاذا حللت مكانا سحيقا * فهما فى النفوس معشوقتان
هذه مكة العزيزة بيت الله يسعى لحجها الثقلان
وترى أزهد البرية فى الحج لها أهلها القريب المكان

﴿فصل﴾ فأما ما يجب أن يكون عليه العلماء من الأخلاق التى بهم أليق ولهم ألزم فالتواضع ومجانبة العجب لان التواضع عطوف والعجب منفر وهو بكل أحد قبيح وبالعلماء أقبح لأن الناس بهم يقتدون وكثيرا ما يداخلهم الاعجاب لتوحدهم بفضيلة العلم ولو أنهم نظروا حق النظر

وعملوا بموجب العلم لكان التواضع بهم أولى ومجانبة العجب بهم أحرى لانّ العجب نقص ينافى الفضل لاسيما مع قول النبى صلى الله عليه وسلم « إن العجب ليأكل الحسنات كما تأكل النار الحطب » فلا يفى ما أدركوه من فضيلة العلم بما لحقهم من نقص العجب . وقد روى عبد الله بن عمر رضى الله عنهما قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم قليل العلم خير من كثير العبادة وكفى بالمرء علما إذا عبد الله عز وجل وكفى بالمرء جهلا إذا أعجب برأيه . وقال عمر بن الخطاب رضى الله عنه تعلموا العلم وتعلموا للعلم السكينة والحلم وتواضعوا لمن تتعلمون منه ليتواضع لكم من تعلمونه ولا تكونوا من جبابرة العلماء فلا يقوم علمكم بجهلكم . وقال بعض السلف من تكبر بعلمه وترفع وضعه الله به ومن تواضع بعلمه رفعه الله به وعلة إعجابهم انصراف نظرهم إلى كثرة من دونهم من الجهال وانصراف نظرهم عمن فوقهم من العلماء فانه ليس متناه فى العلم الا وسيجد من هو أعلم منه إذ العلم أكثر من أن يحيط به بشر . قال الله تعالى « نرفع درجات من نشاء وفوق كل ذى علم عليم » يعنى فى العلم . قال أهل التأويل يعنى فوق كل ذى علم من هو أعلم منه حتى ينتهى ذلك إلى الله تعالى . وقيل لبعض الحكماء من يعرف كل العلم قال كل الناس . وقال الشعبى ما رأيت مثلى وما أشاء أن ألقى رجلا أعلم منى إلا لقيته لم يذكر الشعبى هذا القول تفضيلا لنفسه فيستقبح منه وانما ذكره تعظيما للعلم عن أن يحاط به فينبغى لمن علم أن ينظر الى نفسه بتقصيرها قصر فيه ليسلم من عجب ما أدرك منه . وقد قيل فى منثور الحكم إذا علمت فلا تفكر فى كثرة من دونك من الجهال ولكن انظر الى من فوقك من العلماء وأنشدت لابن العميد

من شاء عيشا هنيئا يستفيده * فى دينه ثم فى دنياه إقبالا
فلينظرنّ الى من فوقه أدبا * ولينظرنّ الى من دونه مالا

وقلما تجد بالعلم معجبا وبما أدركه منه مفتخرا إلا من كان فيه مقلا ومقصرا لانه قد يجهل قدره ويحسب أنه نال بالدخول فيه أكثره فأما من كان فيه متوجها ومنه مستكثرا فهو يعلم من بعد غايته والعجز عن ادراك نهايته ما يصدّه عن العجب به . وقد قال الشعبى العلم ثلاثة أشبار فمن نال منه شبرا شمخ بأنفه وظن أنه ناله ومن نال الشبر الثانى صغرت اليه نفسه وعلم أنه لم ينله وأما الشبر الثالث فهيهات لا يناله أحد أبدا ومما أنذرك به من حالى أننى صنفت فى البيوع كتابا جمعت فيه ما استطعت من كتب الناس وأجهدت فيه نفسى وكددت فيه خاطرى حتى اذا تهذب واستكمل وكدت أعجب به وتصورت أننى أشدّ الناس اضطلاعا بعلمه حضرنى وأنا فى مجلسى أعرابيان فسألانى عن بيع عقداه فى البادية على شروط تضمنت أربع مسائل لم أعرف لواحدة منهن جوابا فأطرقت مفكرا وبحالى وحالهما معتبرا فقالا ما عندك فيما سألناك جواب وأنت زعيم هذه الجماعة فقلت لا فقالا واهالك وانصرفا ثم أتيا من يتقدمه فى العلم كثير من أصحابى فسألاه فأجابهما مسرعا بما أقنعهما وانصرفا عنه راضين بجوابه حامدين لعلمه فبقيت مرتبكا وبحالهما وحالى معتبرا وإنى لعلى ما كنت عليه فى تلك المسائل الى وقتى فكان ذلك زاجر نصيحة ونذير عظة تذلل بهما قياد النفس وانخفض لهما جناح العجب توفيقا منحته ورشدا أوتيته وحق على من ترك العجب بما يحسن أن يدع التكلف لما لا يحسن فقد نهى الناس عنهما واستعاذوا بالله منهما ومن أوضح ذلك بيانا استعاذة

الجاحظ فى كتاب البيان حيث يقول اللهم إنا نعوذ بك من فتنة القول كما نعوذ بك من فتنة العمل ونعوذ بك من التكلف لما لا نحسن كما نعوذ بك من العجب بما نحسن ونعوذ بك من شرّ السلاطة والهذر كما نعوذ بك من شرّ العىّ والحصر ونحن نستعيذ بالله تعالى مثل ما استعاذ فليس لمن تكلف ما لا يحسن غاية ينتهى اليها ولا حدّ يقف عنده ومن كان تكلفه غير محدود فأخلق به أن يضل و يضل . وقد روى عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال « من سئل فأفتى بغير علم فقد ضل وأضل » . وقال بعض الحكماء من العلم أن لا تتكلم فيما لا تعلم بكلام من يعلم فحسبك جهلا من عقلك أن تنطق بما لا تفهم ولقد أحسن زرارة بن زيد حيث يقول

اذا ما انتهى علمى تناهيت عنده * أطال فأبلى أو تناهى فأقصرا

و يخبرنى عن غائب المرء فعله * كفى الفعل عما غيب المرء مخبرا

فاذا لم يكن الى الاحاطة بالعلم سبيل فلا عار أن يجهل بعضه وإذا لم يكن فى جهل بعضه عار لم يقبح به أن يقول لا أعلم فيما ليس يعلم . و روى أن رجلا قال يا رسول الله أىّ البقاع خير وأى البقاع شر فقال لا أدرى حتى أسأل جبريل . وقال على بن أبى طالب رضى الله عنه وما أبردها على القلب اذا سئل أحدكم فيما لا يعلم أن يقول الله أعلم و إن العالم من عرف أن ما يعلم فيما لا يعلم قليل . وقال عبد الله بن عباس رضى الله عنهما اذا ترك العالم قول لا أدرى أصيبت مقاتله . وقال بعض العلماء هلاك من ترك لا أدرى . وقال بعض الحكماء ليس لى من فضيلة العلم إلا علمى بأنى لست أعلم . وقال بعض البلغاء من قال لا أدرى علم فدرى ومن انتحل ما لا يدرى أهمل فهوى ولا ينبغى للرجل وان صار فى طبقة العلماء الأفاضل أن يستنكف من تعلم

ماليس عنده ليسلم من التكلف له . وقد قال عيسى بن مريم على نبينا وعليه السلام ياصاحب العلم تعلم من العلم ماجهلت وعلم الجهال ماعلمت . وقال على بن أبى طالب رضى الله عنه خمس خذوهن عنى فلو ركبتم الفلك ماوجدتموهن إلا عندى ألا لايرجونّ أحد إلا ربه ولا يخافن إلا ذنبه ولا يستنكف أن يتعلم ماليس عنده واذا سئل عما لايعلم فليقل لا أعلم ومنزلة الصبر من الايمان بمنزلة الرأس من الجسد . وقال عبد الله بن عباس رضى الله عنهما لو كان أحد مكتفيا من العلم لاكتفى منه موسى على نبينا وعليه السلام ولما قال هل أتبعك على أن تعلمن مما علمت رشدا . وقيل للخليل بن أحمد بم أدركت هذا العلم قال كنت إذا لقيت عالما أخذت منه وأعطيته . وقال بزرجمهر من العلم أن لاتحقر شيأ من العلم ومن العلم تفضيل جميع العلم . وقال المنصور لشريك أنى لك هذا العلم قال لم أرغب عن قليل أستفيده ولم أبخل بكثير أفيده على أن العلم يقتضى مابقى منه ويستدعى ماتأخر عنه وليس للراغب فيه قناعة ببعضه . وروى عون بن عبد الله عن ابن مسعود رضى الله عنه أنه قال «منهومان لايشبعان طالب علم وطالب دنيا» أما طالب العلم فانه يزداد من الرحمن قربا ثم قرأ «انما يخشى الله من عباده العلماء» وأما طالب الدنيا فانه يزداد طغيانا ثم قرأ «كلا إن الانسان ليطغى أن رآه استغنى» وليكن مستقلا للفضيلة منه ليزداد منها ومستكثرا للنقيصة فيه لينتهى عنها ولا يقنع من العلم بما أدرك لأن القناعة فيه زهد والزهد فيه ترك والترك له جهل . وقد قال بعض الحكماء عليك بالعلم والاكثار منه فان قليله أشبه شئ بقليل الخير وكثيره أشبه شئ بكثيره ولن يعيب الخير إلا القلة فأما كثرته فانها أمنية . وقال بعض البلغاء

من فضل علمك استقلالك لعلمك ومن كمال عقلك استظهارك على عقلك ولا ينبغي أن يجهل من نفسه مبلغ علمها ولا أن يتجاوز بها قدرحفها ولا أن يكون بها مقصرا فيذعن بالانقياد أولى من أن يكون بها متجاوزا فيكف عن الازدياد لأن من جهل حال نفسه كان لغيرها أجهل . وقد قالت عائشة رضي الله عنها يارسول الله متى يعرف الانسان ربه قال اذا عرف نفسه وقد قسم الخليل بن أحمد أحوال الناس فيما علموه أوجهلوه أربعة أقسام متقابلة لايخلوحال الانسان منها فقال الرجال أربعة رجل يدرى ويدرى أنه يدرى فذلك عالم فاسألوه ورجل يدرى ولايدرى أنه يدرى فذلك ناس فذكروه ورجل لايدرى ويدرى أنه لايدرى فذلك مسترشد فعلموه ورجل لايدرى ولايدرى أنه لايدرى فذلك جاهل فارفضوه . وأنشد أبو القاسم الآمدى

اذا كنت لاتدرى ولم تك بالذى * يسائل من يدرى فكيف اذا تدرى
جهلت ولم تعلم بأنك جاهل * فمن لى بأن تدرى بأنك لاتدرى
اذا جئت فى كل الامور بغمة * فكن هكذا أرضا يدسك الذى يدرى
ومن أعجب الاشياء أنك لاتدرى * وأنك لاتدرى بأنك لاتدرى

وليكن من شيمته العمل بعلمه وحث النفس على أن تأتمر بما يأمر به ولايكن ممن قال الله تعالى فيهم « مثل الذين حملوا التوراة ثم لم يحملوها كمثل الحمار يحمل أسفارا » . وقد قال قتادة فى قوله تعالى « وإنه لذو علم لما علمناه » إنه لعامل بما علم . وروى عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال « ويل لجماع القول وويل للمصرين » يريد الذين يستمعون القول ولايعملون به . وروى عبد الله بن وهب عن سفيان أن الخضر على نبينا وعليه السلام قال لموسى

عليه السلام يا ابن عمران تعلم العلم لتعمل به ولا تتعلمه لتحدث به فيكون عليك بوره ولغيرك نوره . وقال على بن أبى طالب إنما زهد الناس فى طلب العلم لما يرون من قلة انتفاع من علم بما علم . وقال أبو الدرداء أخوف ما أخاف إذا وقفت بين يدى الله أن يقول قد علمت فماذا عملت وكان يقال خير من القول فاعله وخير من الصواب قائله وخير من العلم عامله . وقيل فى منثور الحكم لم ينتفع بعلمه من ترك العمل به . وقال بعض العلماء ثمرة العلم أن يعمل به وثمرة العمل أن يؤجر عليه . وقال بعض الصلحاء العلم يهتف بالعمل فان أجابه وإلا ارتحل . وقال بعض الحكماء خير العلم ما نفع وخير القول ما ردع . وقال بعض الادباء ثمرة العلوم العمل بالمعلوم . وقال بعض البلغاء من تمام العلم استعماله ومن تمام العمل استقلاله فمن استعمل علمه لم يخل من رشاد ومن استقل عمله لم يقصر عن مراد . وقال أبو تمام الطائى

ولم يحمدوا من عالم غير عامل * خلاقا ولا من عامل غير عالم
رأوا طرقات المجد عوجا فظيعة * وأفظع عجز عندهم عجز حازم

لأنه لما كان علمه حجة على من أخذ عنه واقتبسه منه حتى يلزمه العمل به والمصير اليه كان عليه أحج وله ألزم لأن مرتبة العلم قبل مرتبة القول كما أن مرتبة العلم قبل مرتبة العمل . وقد قال أبو العتاهية رحمه الله

اسمع الى الاحكام تحـ * ـملها الرواة اليك عنكا
واعلم هديت بأنها * حجج تكون عليك منكا

ثم ليتجنب أن يقول ما لا يفعل وأن يأمر بما لا يأتمر وأن يسر غير ما يظهر ولا يجعل قول الشاعر هذا

اعمل بقولى وان قصرت فى عملى * ينفعك قولى ولا يضرك تقصيرى

عذر الله فى تقصيره فيضره وان لم يضر غيره فان اعذار النفس يغريها ويحسن لها مساويها فان من قال مالا يفعل فقد مكر ومن أمر بما لا يأتمر فقد خدع ومن أسر غير ما يظهر فقد نافق . وقد روى عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال « المكر والخديعة صاحبهما فى النار » على أن أمره بما لا يأتمر مطرح وإنكاره ما لا ينكره من نفسه مستقبح بل ربما كان ذلك سببا لاغراء المأمور بترك ما أمر به عنادا وارتكاب ما نهى عنه كيادا . وحكى أن أعرابيا أتى ابن أبى ذئب فسأله عن مسئلة طلاق فأفتاه بطلاق امرأته فقال انظر حسنا قال نظرت وقد بانت منك فولى الأعرابى وهو يقول

أتيت ابن ذئب أبتغى الفقه عنده * فطلق حتى البت تبت أنامله

أطلق فى فتوى ابن ذئب حليلتى * وعند ابن ذئب أهله وحلائله

فظن بجهله أنه لا يلزمه الطلاق بقول من لم يلتزم الطلاق فما ظنك بقول يجب فيه اشتراك الآمر والمأمور كيف يكون مقبولا منه وهو غير عامل به ولا قابل له كلا . وقال أحمد بن يوسف

وعامل بالفجور يأمر بالـ * ـبر كهاد يخوض فى الظلم

أو كطبيب قد شفه سقم * وهو يداوى من ذلك السقم

يا واعظ الناس غير متعظ * ثوبك طهر أولا فلا تسم

وقال آخر

عود لسانك قلة اللفظ * واحفظ كلامك أيما حفظ

إيالك أن تعظ الرجال وقد * أصبحت محتاجا إلى الوعظ

وأما الانقطاع عن العلم إلى العمل أو الانقطاع عن العمل إلى العلم إذا عمل بموجب العلم فقد حكى عن الزهرى فيه ما يغنى عن تكلف غيره وهو أنه قال العلم أفضل من العمل به لمن جهل والعمل أفضل من العلم لمن علم وأما فضل ما بين العلم والعبادة إذا لم يخل بواجب ولم يقصر فى فرض فقد روى عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال « يبعث العالم والعابد فيقال للعابد ادخل الجنة ويقال للعالم اقعد حتى تشفع للناس » . ومن آداب العلماء أن لا يبخلوا بتعليم ما يحسنون ولا يمتنعوا من إفادة ما يعلمون فان البخل به لؤم وظلم والمنع منه حسد وإثم وكيف يسوغ لهم البخل بما منحوه جودا من غير بخل وأوتوه عفوا من غير بذل أم كيف يجوز لهم الشح بما إن بذلوه زاد ونمى وان كتموه تناقص ووهى ولو استن بذلك من تقدمهم لما وصل العلم اليهم ولا نقرض عنهم بانقراضهم ولصاروا على مرور الأيام جهالا وبتقلب الاحوال وتناقصها أرذالا . وقد قال الله تعالى « وإذ أخذ الله ميثاق الذين أوتوا الكتاب لتبيننه للناس ولا تكتمونه » . وروى عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال « لا تمنعوا العلم أهله فان فى ذلك فساد دينكم والتباس بصائركم ثم قرأ « إن الذين يكتمون ما أنزلنا من البينات والهدى من بعد ما بيناه للناس فى الكتاب أولئك يلعنهم الله ويلعنهم اللاعنون » . وروى عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال « من كتم علما يحسنه ألجمه الله يوم القيامة بلجام من نار » . وروى عن على بن أبى طالب كرم الله وجهه أنه قال ما أخذ الله العهد على أهل الجهل أن يتعلموا حتى أخذ العهد على أهل العلم أن يعلموا وقال بعض الحكماء اذا كان

من قواعد الحكمة بذل ما ينقصه البذل فأحرى أن يكون من قواعدها بذل ما يزيده البذل . وقال بعض العلماء كما أن الاستفادة نافلة للمتعلم كذلك الافادة فريضة على المعلم . وقد قيل فى منثور الحكم من كتم علما فكأنه جاهله . وقال خالد بن صفوان إنى لأفرح بافادتى المتعلم أكثر من فرحى باستفادتى من العلم ثم له بالتعليم نفعان . أحدهما ما يرجوه من ثواب الله تعالى فقد جعل النبى صلى الله عليه وسلم التعليم صدقة فقال تصدقوا على أخيكم بعلم يرشده ورأى يسدده . وروى ابن مسعود عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال « تعلموا العلم وعلموا فان أجر العالم والمتعلم سواء قيل وما أجرهما قال مائة مغفرة ومائة درجة فى الجنة » . والنفع الثانى زيادة العلم وإتقان الحفظ فقد قال الخليل بن أحمد اجعل تعليمك دراسة لعلمك واجعل مناظرة المتعلم تنبيها على ما ليس عندك . وقال ابن المعتز فى منثور الحكم النار لا ينقصها ما أخذ منها ولكن يخمدها أن لا تجد حطبا كذلك العلم لا يفنيه الاقتباس ولكن فقدا لحاملين له سبب عدمه فايالك والبخل بما تعلم . وقال بعض العلماء علم علمك وتعلم علم غيرك فاذا أنت قد علمت ما جهلت وحفظت ما علمت * واعلم أن المتعلمين ضربان مستدعى وطالب فأما المستدعى الى العلم فهو من استدعاه العالم الى التعليم لما ظهر له من جودة ذكائه وبان له من قوة خاطره فاذا وافق استدعاء العالم شهوة المتعلم كانت نتيجتها درك الحياء وظفر السعداء لان العالم باستدعائه متوفر والمتعلم بشهوته وذكائه مستكثر وأما طالب العلم لداع يدعوه وباعث يحدوه فان كان الداعى دينيا وكان المتعلم فطنا ذكيا وجب على العالم أن يكون عليه مقبلا وعلى تعليمه متوفرا لا يخفى عليه مكتونا ولا يطوى عنه مخزونا

وان كان بليدا بعيد الفطنة فينبغى أن لا يمنع من اليسير فيحرم ولا يحمل عليه بالكثير فيظلم ولا يجعل بلادته ذريعة لحرمانه فان الشهوة باعثة والصبر مؤثر . وقد روى عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال « لا تمنعوا العلم أهله فتظلموا ولا تضعوه فى غير أهله فتأثموا » . وقال بعض الحكماء لا تمنعوا العلم أحدا فان العلم أمنع لجانبه فأما ان لم يكن الداعى دينيا نظر فيه فان كان مباحا كرجل دعاه الى طلب العلم حب النباهة وطلب الرئاسة فالقول فيه يقارب القول الاول فى تعليم من قبل لان العلم يعطفه الى الدين فى ثانى الحال وان لم يكن مبتدئا به فى أول حال . وقد حكى عن سفيان الثورى أنه قال تعلمنا العلم لغير الله تعالى فأبى أن يكون إلا لله . وقال عبد الله بن المبارك طلبنا العلم للدنيا فدلنا على ترك الدنيا وان كان الداعى محظورا كرجل دعاه الى طلب العلم شركا من ومكر باطن يريد أن يستعملهما فى شبه دينيه وحيل فقهيه لا تحد أهل السلامة منهما مخلصا ولا عنهما مدفعا كما قال النبى صلى الله عليه وسلم « أهلك أمتى رجلان عالم فاجر وجاهل متعبد فقيل يا رسول الله أى الناس شر فقال العلماء اذا فسدوا » فينبغى للعالم إذا رأى من هذه حاله أن يمنعه من طلبته ويصرفه عن بغيته ولا يعينه على امضاء مكره واكمال شره . فقد روى أنس بن مالك عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال « واضع العلم فى غير أهله كمقلد الخنازير اللؤلؤ والجوهر والذهب » . وقال عيسى بن مريم على نبينا وعليه السلام لا تلقوا الجوهر للخنزير فالعلم أفضل من اللؤلؤ ومن لا يستحقه شر من الخنزير . وحكى أن تلميذا سأل عالما عن بعض العلوم فلم يفده فقيل له لم منعته فقال لكل تربة غرس ولكل بناء أس . وقال بعض البلغاء لكل ثوب لابس

ولكل علم قابس . وقال بعض الادباء ارث لروضة توسطها خنزير وابك لعلم حواه شرير وينبغي أن يكون للعالم فراسة يتوسم بها المتعلم ليعرف مبلغ طاقته وقدر استحقاقه ليعطيه ما يحمله بذكائه أو يضعف عنه ببلادته فانه أروح للعالم وأنجح للمتعلم . وقد روى ثابت عن أنس بن مالك قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «ان لله عبادا يعرفون الناس بالتوسم» وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه اذا أنا لم أعلم ما لم أر فلا علمت ما رأيت . وقال عبد الله بن الزبير لا عاش بخير من لم ير برأيه ما لم ير بعينيه . وقال ابن الرومي

ألمعيّ يرى بأوّل رأى * آخر الأمر من وراء المغيب
لو ذعيّ له فؤاد ذكيّ * ماله في ذكائه من ضريب
لا يروّى ولا يقلب طرفا * وأكف الرجال في تقليب

واذا كان العالم في توسم المتعلمين بهذه الصفة وكان بقدر استحقاقهم خبيرا لم يضع له عناء ولم يخب على يديه صاحب وان لم يتوسمهم وخفيت عليه أحوالهم ومبلغ استحقاقهم كانوا وإياه في عناء مكد وتعب غير مجد لانه لا يعدم أن يكون فيهم ذكي محتاج الى الزيادة وبليد يكتفي بالقليل فيضجر الذكي ويعجز البليد ومن تردّد أصحابه بين عجز وضجر ملوه وملهم . وقد حكي عبد الله بن وهب أن سفيان بن عبد الله قال قال الخضر لموسى عليهما السلام يا طالب العلم ان القائل أقل ملالة من المستمع فلا تعلّ جلساءك اذا حدّثتهم يا موسى واعلم أن قلبك وعاء فانظر ما تحشو في وعائك . وقال بعض الحكماء خير العلماء من لا يقلّ ولا يعل . وقال بعض العلماء كل علم كثر على المستمع ولم يطاوعه الفهم ازداد القلب به عمى وانما ينفع سمع

الآذان اذا قوى فهم القلوب فى الابدان وربما كان لبعض السلاطين رغبة فى العلم لفضيلة نفسه وكرم طبعه فلا يجعل ذلك ذريعة فى الانبساط عنده والادلال عليه بل يعطيه ما يستحقه بسلطانه وعلو يده فان للسلطان حق الطاعة والاعظام وللعالم حق القبول والاكرام ثم لا ينبغى أن يبتدئه الا بعد الاستدعاء ولا يزيده على قدر الاكتفاء فربما أحب بعض العلماء اظهار علمه للسلطان فأكثره فصار ذلك ذريعة الى ملله ومفضيا الى بعده فان السلطان متقسم الافكار مستوعب الزمان فليس له فى العلم فراغ المنقطعين اليه ولا صبر المنفردين به . وقد حكى الاصمعى رحمه الله قال قال لى الرشيد يا أبا عبد الملك أنت أعلم منا ونحن أعقل منك فلا تعلمنا فى ملا ولا تسرع الى تذكيرنا فى خلا واتركنا حتى نبتدئك بالسؤال فاذا بلغت من الجواب قدر الاستحقاق فلا تزدا الا أن نستدعى ذلك منك وانظر الى ما هو ألطف فى التأديب وأنصف فى التعليم وبلغ بأوجز لفظ غاية التفويم . وليخرج تعليمه مخرج المذاكرة والمحاضرة لا مخرج التعليم والافادة لان لتأخير التعلم خجلة تقصير يجل السلطان عنها فان ظهر منه خطأ أو زلل فى قول أو عمل لم يجاهره بالرد وعرّض باستدراك زلله واصلاح خلله . وحكى أن عبد الملك بن مروان قال للشعبى كم عطاءك قال ألفين قال لحنت قال لما تركت أمير المؤمنين الاعراب كرهت أن أعرب كلامى عليه . ثم ليحذر اتباعه فيما يجانب الدين ويضاد الحق موافقة لرأيه ومتابعة لهواه فربما زلت أقدام العلماء فى ذلك رغبة أو رهبة فضلوا وأضلوا مع سوء العاقبة وقبح الآثار . وقد روى الحسن البصرى رحمه الله قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « لا تزال هذه الامة بخير تحت يد الله وفى كنفه ما لم يمال قرّاؤها

أمراءها ولم يزل صلحاؤها بخيارها ولم يمار أخيارها أشرارها فاذا فعلوا ذلك رفع عنهم يده ثم سلط عليهم جبابرتهم فساموهم سوء العذاب وضربهم بالفاقة والفقر وملأ قلوبهم رعبا» . ومن آدابهم نزاهة النفس عن شبه المكاسب والقناعة بالميسور عن كد المطالب فان شبه المكتسب اثم وكد الطلب ذل والاجر أجدر به من الاثم والعز أليق به من الذل . وأنشدني بعض أهل الادب لعلي بن عبد العزيز القاضي رحمه الله تعالى

يقولون لي فيك انقباض وانما * رأوا رجلا عن موقف الذل أحجما
أرى الناس من داناهم هان عندهم * ومن أكرمته عزة النفس أكرما
ولم أقض حق العلم ان كان كلما * بدا طمع صيرته لي سلما
وما كل برق لاح لي يستفزني * ولا كل من لاقيت أرضاه منعما
اذا قيل هذا منهل قلت قد أرى * ولكن نفس الحر تحتمل الظما
أنهنهها عن بعض ما لا يشينها * مخافة أقوال العدا فيم أولما
ولم أبتذل في خدمة العلم مهجتي * لأخدم من لاقيت لكن لأخدما
أأشقى به غرسا وأجنيه ذلة * اذن فاتباع الجهل قد كان أحزما
ولو أن أهل العلم صانوه صانهم * ولو عظموه في النفوس لعظما
ولكن أهانوه فهان ودنسوا * محياه بالأطماع حتى تجهما

على أن العلم عوض من كل لذة ومغن عن كل شهوة ومن كان صادق النية فيه لم يكن له همة فيما يجد بدا منه . وقال بعض البلغاء من تفرد بالعلم لم توحشه خلوة ومن تسلى بالكتب لم تفته سلوة ومن آنسه قراءة القرآن لم توحشه مفارقة الاخوان . وقال بعض العلماء لا سمير كالعلم ولا ظهير كالحلم . ومن آدابهم أن يقصدوا وجه الله بتعليم من علموا ويطلبوا

ثوابه بارشاد من أرشدوا من غير أن يعتاضوا عليه عوضا ولا يلتمسوا عليه رزقا . فقد قال الله تعالى «ولا تشتروا بآياتي ثمنا قليلا» . قال أبو العالية لا تأخذوا عليه أجرا وهو مكتوب عندهم في الكتاب الاول يا ابن آدم علم مجانا كما علمت مجانا . وروى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال «أجر المعلم كأجر الصائم القائم» وحسب من هذا أجره أن يلتمس أجرا . ومن آدابهم نصح من علموه والرفق بهم وتسهيل السبيل عليهم وبذل المجهود في رفدهم ومعونتهم فان ذلك أعظم لأجرهم وأسنى لذكرهم وأنشر لعلومهم وأرسخ لمعلومهم . وقد روى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال لعلي كرم الله وجهه يا علي «لأن يهدي الله بك رجلا خير مما طلعت عليه الشمس» . ومن آدابهم أن لا يعنفوا متعلما ولا يحقروا ناشئا ولا يستصغروا مبتدئا فان ذلك أدعى اليهم وأعطف عليهم وأحث على الرغبة فيما لديهم . وروى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال «علموا ولا تعنفوا فان المعلم خير من المعنف» . وروى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال «وقروا من تتعلمون منه ووقروا من تعلمونه» . ومن آدابهم أن لا يمنعوا طالبا ولا ينفروا راغبا ولا يؤيسوا متعلما لما في ذلك من قطع الرغبة فيهم والزهد فيما لديهم واستمرار ذلك مفض الى انقراض العلم بانقراضهم . فقد روى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال «ألا أنبئكم بالفقيه كل الفقيه قالوا بلى يا رسول الله قال من لم يقنط الناس من رحمة الله تعالى ولا يؤيسهم من روح الله ولا يدع القرآن رغبة الى ما سواه ألا لا خير في عبادة ليس فيها تفقه ولا علم ليس فيه تفهم ولا قراءة ليس فيها تدبر» فهذه جملة كافية والله ولي التوفيق